سلسلة المنهج الإسلامي في تزكية النفس (١)

أمراض النفس

دراسة تربوية لأمراض النفوس
ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك

تأليف
الدكتور أنس أحمد كرزون

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ
(٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ
هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾

سورة النازعات/ الآيات ٣٧ ـ ٤١

هدية لمكتبة الحرم النبوي

مع رجاء الدعوات الصالحة

لمن يقرأ فيه

المؤلف

١٧/٤/١٤٢٠

أمراض النفس

دراسة تربوية لأمراض النفوس

ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة:

الحمد لله المنعِم المتفضل ذي الجلال والإكرام ، الَّذِي خلَقَ فسوَّى ، والذي قدَّرَ فهَدى ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد.

فقد شاءت حكمة الله سبحانه أن يكون للنفس البشرية قابلية التوجُّه للخير أو الشر ، وأن تتميز بخصائص وصفاتٍ تتجلَّى فيها بدائع قدرة الله سبحانه في خلقه ، وحكمته في ابتلائهم .

قال تعالى: ﴿**ونفسٍ وما سوَّاها فألهمها فجورَها وتقواها قد أفلَحَ مَن زكَّاها وقد خابَ مَن دسَّاها**﴾ [سورة الشمس: الآيات:٧-١٠] .

فالمبادرة إلى تزكية النفس فرضٌ لازمٌ على كلِّ مسلمٍ لينال الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة ، ويحظى برضى الرحمن سبحانه ، ومن هنا تبرز أهمية الحديث عن منهج الإسلام في تزكية النفس بصورته المشرقة المستقاةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ ، وما كان عليه سلفُ الأُمَّةِ ، لحَثِّ الناسِ على العودة الصادقة إلى رحاب هذا المنهج

القَويم ، وبيان ثمراته اليانعة ، وأنه العلاج الناجع لِما هم فيه اليوم من تخبُّطٍ وضلال .

وقد سبق لي أن أصدرت كتاب (منهج الإسلام في تزكية النفس) ، أسهمتُ فيه بما وفّقني الله إليه من توضيح منهج التزكية بأسلوبٍ تربويٍّ توجيهيٍّ مبسَّط ، وها أنا ذا أُفرِدُ بعض موضوعاته في أجزاءَ مستقلّة تيسيراً لانتفاع القرَّاءِ به وبخاصة موضوع أمراض النفس ، فهو الداء العُضال ، والآفة المهلكة التي طَغَتْ حَتّى تبلَّدَ حِسُّ الناس تجاهها ، وتغافلوا عن أخطارها مما قد يؤدي إلى استئصال شجرة التزكية في النفس .

فشجرةُ التزكية لابد لها من حماية ووقاية، لأن هناك كثيراً من الأمراض التي قد تصيبها ، أو المعوقات التي تعترض سبيلها بين الحين والآخر، وهذه الأمراض والمعوقات لا تعيق نمو تلك الشجرة فحسب، وإنما تحيلها إلى أغصان ذابلة، وقد تقتلعها من جذورها، وذلك حينما يصل تأثيرها إلى الأسس العقدية في التزكية، فيكون خطرها وبيلاً وشرها مستطيراً.

والفرق بين الأمراض والمعوقات أن الأمراض تأتي من داخل النفس بسبب شبهة أو شهوة ، وأما المعوقات فإنها تأتي من خارجها

فتؤثر فيها ، وأبرز هذه المعوقات تأثير الشيطان ووساوسه ، وتأثير الأسرة والمجتمع الذي يعيش فيه المسلم.

ومعرفة الأمراض والمعوقات ضرورية لكل من يسير في طريق التزكية لكي يحذرها ويتخذ التدابير الواقية منها، ولذلك ركزت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية على تشخيص هذه الأمراض ووصف العلاج لها، كما بينت أخطار المعوقات وآثارها وكيفية علاجها.

وقبل البدء بموضوعات هذا الكتاب لابد من بيان حقيقة مهمة ركزت عليها الآيات القرآنية وجعلتها أساساً لكل أمراض النفس ومعوقات تزكيتها ألا وهي **اتباع الهوى**، فالنفس تهوى وتحب؛ ولها غرائز ورغبات ومشتهيات، والإسلام لا يجابه هذه الرغبات والغرائز وإنما ينظمها لتسير في طريق مأمون يحقق السعادة ، ويوصل إلى تزكية النفس وتحليها بالأخلاق الفاضلة .

فإذا جعل المرء من هوى النفس قائداً يقوده، واتبع ذلك الهوى بلا وازع ولا ضابط، فقد سلك سبيل الردى، ولم يبق أمام الأمراض والمعوقات أي مانع يمنعها من التغلغل في أعماق النفس حتى يحل به الهلاك ولو كان في عِدَادِ الأحياء.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ؛ فَمَن يَّهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الجاثية / آية ٢٣).

ويقول عز وجل: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (سورة الكهف / من الآية ٢٨). أي: تضييعاً وهلاكاً.

ويقول تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعلمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة القصص / آية ٥٠).

فلا نجاةَ للعبد ولا سلامة له من أمراض النفس وآفاتها إلا بأن يجعل هوى نفسه تبعاً لأوامر ربه ليحظى بجنته ورضوانه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾ (سورة النازعات / الآيتان ٤٠-٤١).

وفي الحديث عن عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما قال: قال رسول ا لله ﷺ "لا يؤمن أحدكم حَتّى يكونَ هواهُ تبعاً لِما جئت به" [1].

وأما كيف يتحكم العبد في هواه ويتخلص من أخطار أمراض نفسه ومعوقات تزكيتها فهذا ما سنراه في ثنايا موضوعات هذا الكتاب إن شاء ا لله.

---

(١) رواه الحافظ المقدسي في كتاب الحجة، وصححه النووي في الأربعين النووية، حديث رقم/٤١، ولم يقِرُّه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحِكَم، ولكن الحديث معناه صحيح، تؤيِّدُهُ الآية الكريمة المذكورة.

أمراض النفس ومعوقات تزكيتها وعلاج ذلك

الفصل الأول: أمراض النفس وعلاجها.

المبحث الأول: **صحة القلب ومرضه.**

المبحث الثاني: **أمراض بسبب الشبهات.**

الشرك ـ النفاق ـ البدعة.

المبحث الثالث: **أمراض بسبب الشهوات.**

أولاً: شهوتا حب النفس وحب الجاه.

ثانياً: شهوة حب المال.

ثالثاً: شهوة الفرج.

رابعاً: شهوة البطن.

* علاج طغيان الشهوات.

الفصل الثاني: معوقات تزكية النفس وعلاجها.

المبحث الأول: الشيطان.

المبحث الثاني: تأثير الأسرة والمجتمع.

الفصل الأول

أمراض النفس وعلاجها

معظم الأمراض النفسية والعصبية التي أصبحت داء العصر وسمة من سمات الحضارة المادية الحديثة، ما هي إلا نتائج لأمراض أخطر منها وأكثر تأصلاً في النفس الإنسانية البعيدة عن ربها، مِمَّا يؤدي إلى إفساح المجال للشبهات والشهوات كي تستقر في النفس وتغزو صميم القلب، ولكن هذه الأمراض المخفية قلّما يشعر بها الإنسان، لأنها لا تؤدي إلى آلام محسوسة أو تغيرات مشاهدة على شخص المريض، تجعله يفِرُّ من الحياة ويسلك بعض المسالك المضطربة الدالة على قلقه واهتزاز شخصيته، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم.

والمتأمل لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد أنها حافلة بالحديث عن أمراض النفس والقلب، وأقسام تلك الأمراض، والأسباب الموقعة فيها، وكيفية الحذر والنجاة منها حتى يستقيم حال الإنسان في دنياه، ويحظى بسعادة الدارين، ويظفر بالحياة الطيبة فيهما.

وفرق كبير بين هذا المنهج القويم في علاج أمراض النفس، وبين ما يقوم به أطباء النفس من علاجات مؤقتة سواء بالعقاقير، أو بالإيحاء، أو الرياضة، والتي سرعان ما يزول تأثيرها ويعود المريض أكثر خوفاً

وقلقاً وأرقاً[1].

ولأهمية هذا الموضوع وصلته المباشرة بتزكية النفس، فقد رأيت أن ألقي الضوء عليه بحسب ما يتسع له مجال البحث، مع توضيح وبيان المنهج الإسلامي في علاج هذه الأمراض وتخليص النفس من شرورها، وجعلت ذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صحة القلب ومرضه.

المبحث الثاني: أمراض بسبب الشبهات.

المبحث الثالث: أمراض بسبب الشهوات.

---

(١) ينظر: العلاج النفسي في ضوء القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية -د. عبدالمنان ملاًّ بار - ص/٢٢

المبحث الأول

صحة القلب ومرضه

القلب والنفس لفظان يكثر ورودهما في الكتاب والسنة مع غيرهما من الألفاظ المشابهة كالفؤاد ونحو ذلك، وقد تحدَّثَ العلماء عن معاني هذه الألفاظ والصلة بينها[1] ، وملخص ذلك أن القلب يمثل دائرة من دوائر النفس الإنسانية تستقر فيها العواطف المختلفة، وهو محل الاعتبار والهداية والإيمان، وأما الفؤاد فله دائرة أعمق داخل القلب تتركز فيها مجموعة من خصائص النفس ووظائفها، والحد الفاصل بين الدائرة الكبرى التي تمثل النفس عموماً وبين دائرة القلب يعد موضعاً للغرائز والأهواء والشهوات، ويمكن أن نطلق على هذا الحد دائرة سطح النفس فإذا بقيت تلك الغرائز والشهوات في دائرة سطح النفس ولم تغزُ القلب بسهامها، فذلك حال صحة القلب وسلامته من الأمراض، وهذا ما يحقق النجاة لصاحبه يوم القيامة.

قال تعالى: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**

(سورة الشعراء: الآيتان ٨٨-٨٩).

وهذا القلب إذا لم يتعهده صاحبه بذكر الله تعالى ومراقبته ودوام الخشية منه، فإن الشهوات سرعان ما تتسرب إليه، وهنا تبدأ بوادر المرض، ويزداد تغلغل حب الدنيا وشهواتها إلى ذلك القلب حتى يطغى على حب الله

(١) انظر التفصيل في الباب الأول من كتاب (منهج الإسلام في تزكية النفس) للمؤلف .

ورسوله فيمرض القلب ويضعف الإيمان فيه، فإذا لم يتدارك العبد هذا المرض وداوم على العصيان فإن القلب يقسو ويشتد مرضه حتى يُغلّف ويُطمَس ويُقفل ويُطبع عليه ويزيغ عن الحق وعندها تكون حالة موت القلب التي هي أسوأ الحالات لأنها تنقل صاحبها من الإيمان إلىالكفر وتجعله في مرتبة البهائم.

قال تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يُبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾** (سورة الأعراف / آية ١٧٩) .

ومما ورد من أوصاف هذا القلب في كتاب الله تعالى أنه قلب أعمى قال سبحانه: **﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** (سورة الحج / من الآية ٤٦).

فالعمى الحقيقي ليس عمى البصر وإنما هو عمى القلب والبصيرة، لأن أعمى البصر يستطيع السير في الطريق بالاستعانة بعصاً أو دليل، أما عمى القلب فلا دليل يرشده، فهو يتخبط في كل اتجاه ويقع في كل هاوية ويصطدم بكل ما يعترض طريقه، فهو في زيغ دائم، وقلبه مقفل مختوم بما فيه من ظلمات.

قال تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾** (سورة الصف / من الآية ٥) .

وقال عز وجل: **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم**

غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ (سورة البقرة/ آية ٧).

وقال سبحانه: **﴿وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾** (سورة التوبة / من الآية ٨٧).

وقد ورد في آيات القرآن الكريم ذكر بضعة وعشرين وصفاً لأمراض القلوب المعنوية وهي: الرين والزيغ والطبع والصرف والضيق والحرج والختم والإقفال والإشراب والرعب والقساوة والإصرار وعدم التطهير والنفور والاشمئزاز والإنكار والشكوك والإبعاد والتأبّي والبغضاء والغفلة والغمرة واللهو والارتياب والنفاق[1].

وعلى هذا تنقسم القلوب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القلب الميت: وهو قلب الكافر والمنافق نفاق عقيدة، وهو قلب لا حياة فيه، واقف مع شهواته ولذائذه منقاد لها، أعمى يتخبط في طريق الضلالة.

القسم الثاني: القلب المريض: وهو القلب الذي غزته الشبهات والشهوات حتى شغلته عن حب الله ورسوله فأصبح معتلاً فاسداً، وهذا المرض درجات كثيرة وأنواع عديدة بحسب أسبابه.

وقد عرف الإمام ابن تيمية رحمه الله (مرض القلب) بقوله:

---

(١) النفاق آثاره ومفاهيمه للشيخ عبد الرحمن الدوسري - ص/١٥.

(هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإراداته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه،وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الضار)[1] ، ثم قال: (والمرض دون الموت، فالقلب يموت، بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل، فله موت ومرض، وحياة وشفاء، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه)[2] .

كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في تعريفه للقلب المريض أنه قلب له حياة وبه علة، فله مادتان، تمده هذه مرة وهذه أخرى وهو لما غلب عليه منهما، ففيه محبة الله تعالى والإيمان به وفيه محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها[3] .

القسم الثالث: القلب السليم: وهو الذي تمكّن فيه الإيمان وأصبح عامراً بحب الله ورسوله وقد عرفه الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: (هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب

---

(١) مجموع الفتاوى ٩٣/١٠.

(٢) المرجع نفسه ٩٤/١٠.

(٣) إغاثة اللهفان ٩/١.

اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس)[1].

وأكثر ما يهمنا في هذا الباب المتعلق بأمراض النفس أن نفصل الحديث عن القسم الثاني وهو القلب المريض الذي طغى فيه حب الدنيا وشهواتها على حب الله ورسوله بنسب تختلف من شخص إلى آخر، ومع اختلافها يشتد المرض أو يخف حتى يصل إلى حالة الزيغ والطمس فيموت ذلك القلب.

ومصداق ذلك ما رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون**﴾ (سورة المطففين/ آية ١٤))[2].

فكثرة المعاصي وعدم المبالاة بها تجعل القلب يصدأ ويسوَدّ حتى يُطبع عليه ويرين عليه غطاء كثيف يحجب عنه نور الإيمان، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلد ويموت[3].

قال مجاهد: (هو الرجل يذنب الذنب فيحيط الذنب بقلبه، ثم يذنب

---

(١) الروح لابن القيم ص/٢٤٤.

(٢) رواه الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب / ٧٤ - رقم / ٣٣٣٤، وقال حديث حسن صحيح.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٨٥٨.

الذنب فيحيط الذنب بقلبه، حتى تُغشِّي الذنوب قلبه)[1].

وما أبدع البلاغة النبوية في وصف تأثير الفتن والشهوات على القلوب حتى تشوِّه صفاءها وتُسوِّد نقاءها وتؤدي إلى انتكاسها.

وذلك ما رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلب أُشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكت نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجخّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشرب من هواه)**[2].

فالفتن وشهوات الدنيا تنسلُّ إلى القلب متتابعة واحدة بعد الآخرى كما يُنسج الحصير عوداً عوداً، فأما قلب المؤمن العامر بحب الله ورسوله فإنه " كالصفا " أي: كالحجر الأملس في صلابته وتماسكه ونقاوته وعدم علوق شيء به، فلا تضره فتنة ولا تستهويه معصية ولا يرضى بديلاً عما ظفر به من حلاوة الإيمان في قلبه.

وأما غيره ممن لم يتمكن حب الله ورسوله في قلوبهم فإن سهام الفتن

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٢٥٩.

(٢) رواه مسلم - كتاب الإيمان - باب ذكر الفتن التي تموج كموج البحر - رقم /١٤٤.

وشهوات الدنيا تؤثر تدريجياً في ذلك القلب وتشوه صفاءه حتى يكون "مُرباداًّ" وهو بياض يسيرٌ مع السواد، فإذا انساق العبد أكثر فأكثر وراء أهوائه اختفى أثر البياض الباقي واسودَّ القلب وأظلم.

وهناك وصف آخر لهذا القلب المفتون وهو الكوز المجخي أي المائل المنكوس، وهذا الميل كان في بدايته قليلاً بحسب ماتسرب إليه من الفتن، ثم ازداد ميلاً حتى انقلب وانتكس[1]، ولا يخفى أن الكوز كلما مال عن استقامته انسكب منه ما كان فيه بمقدار الميل، حتى إذا انتكس انسكب كل ما فيه و لم يعد قابلاً لأن يمتلئ بشيء على الإطلاق حتى يعود إلى اعتداله، فما فائدة الكأس إذا انسكب منه الماء الزلال و لم يبق فيه إلا الهواء ؟.

وهنا تتجلى البلاغة النبوية في أبهى صورها، بحيث تترسخ في النفس صورة الكأس المقلوب الذي لا ينتفع منه بشيء، فهو كالعدم وإن كان موجوداً، والهواء الذي فيه تمثيل للهوى المستقر في القلب المنكوس الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، إلا ما اشرب من هواه!!.

وهذا شر القلوب وأخبثها فإنه يعتقد الباطل حقاً والحق باطلاً.

ومثال آخر لبيان أقسام القلوب وأحوالها بحسب الصحة والمرض والحياة والموت وذلك قول حذيفة رضي الله عنه: (القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج

---

(١) ينظر: شرح مسلم للنووي ٢/١٧١.

يزهر، وقلب أغلف مربوط عليه غلافه ، وقلب منكوس، وقلب مصفح.

فأما القلب الأغلف فقلب الكافر.

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر.

وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدُّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه)[(١)].

فالقلب السليم هو قلب المؤمن المستضيء بنور إيمانه المتجرد في إخلاصه لربه، وأما الفاسق فقد اختلط في قلبه الماء الطيب مع القيح المؤذي، فأيُّ المادتين غلبت أحالت القلب إليها، والظاهر أنه يقصد بالقلب المصفح الذي فيه إيمان ونفاق أنه الرياء ونحو ذلك من نفاق الأعمال وليس نفاق العقيدة الذي يكون قلب صاحبه منكوساً.

وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه الله أقسام القلب بقوله: (القلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه، فهو صحيح الإدراك للحق تام الإنقياد والقبول له.

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ١٧/٣، مرفوعاً للنبي ﷺ، والصحيح وقفه على الصحابي كما أورده الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣٠٤/٧، والإمام ابن القيم في إغاثة اللهفان ١٢/١.

والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له.

والقلب المريض إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم.

فما يلقيه الشيطان في الأسماع من الألفاظ، وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين وقوة للقلب الحي السليم)[1].

فالمعاصي هي التي تُمرض القلب وتوهنه وتمنع عنه الحياة وتحجب عنه نور الإيمان لما يسيطر عليه من حب الدنيا.

قال ابن المبارك رحمه الله:

رأيت الذنوب تميتُ القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها[2]

وما أحسن قول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان العلاج من هذه الأمراض:

(القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/١٠.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين ٤/٥١.

ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة)[1].

ولا شك أن مرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان، وذلك لأسباب كثيرة[2]:

أحدها ـ أن المريض به لا يدري أنه مريض.

والثاني ـ وأن عاقبة مرض القلوب غير مشاهدة لكثير من الناس، والإحساس بآلام هذا المرض قليل بخلاف مرض البدن.

والثالث ـ وهو الداء العضال: قلة الأطباء لأمراض القلوب ونُدرتهم، فإن الأطباء هم العلماء، وقد تأثر كثير منهم بهذا المرض إلا من رحم الله.

---

(١) الفوائد ص/١٢٩.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين ٤/٥١.

الحد الفاصل بين القلب السليم والقلب المريض:

إذا كان تغلغل حب الدنيا وشهواتها في القلب يؤدي إلى مرضه، فما هو حال المؤمن إذا تسرَّب إلى قلبه قليل من حب الدنيا وشهواتها المباحة دون أن يطغى على حب الله ورسوله؟

هل يُعَدُّ ذَلِـكَ مرضاً، أو أنه نقص في منزلة صاحبه مع بقاء وصفه بسلامة القلب؟.

الواقع أنني توقفت عند هذه النقطة كثيراً، وتأملت ما ورد من آيات كريمة وأحاديث نبوية وأقوال للعلماء والمفسرين لعلي أصل إلى مقياس في ذلك، وقد استوقفتني آية كريمة وحديثان نبويان، أما الآية فهي قوله تعالى:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾(سورة التوبة / آية ٢٤).

وأما الحديثان فالأول ما رواه مسلم عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال:

(ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في

الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)[1].

والثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) [2].

فكلمة (**أحبَّ**) في المواضع الثلاثة أفعلُ تفضيل، وهي تدل بوضوح على أن المذموم تفضيل حب الدنيا وشهواتها في القلب على حب الله ورسوله ﷺ، وأن ذلك القلب لو دخله شيء من حب الدنيا دون أن يسيطر عليه فلا يلحقه بذلك ذم ما دامت هذه الشهوات مباحة، وإنما ينقص من منزلته بمقدارما دخله من حب الدنيا.

فالله سبحانه أمر عباده بأن تكون قلوبهم عامرة بحب الله ورسوله ﷺ، وحذّرهم من أن تغلب فيها محبة ألوان الوشائج والقرابات والمطامع واللذائذ وشهوات الدنيا من الأموال والتجارات والمساكن المريحة التي تدعو إلى زيادة التعلق بالدنيا ونسيان الآخرة.

فإذا تجرد العبد من كل هذه المحبوبات الدنيوية و لم يدخل شيء منها إلى قلبه، وإنما جعلها في دائرة سطح النفس لا يتعلق بها ولا تشغله عن طاعة ربه

---

(١) رواه مسلم في الإيمان - باب ١١٥ - حديث رقم / ٤٣.

(٢) رواه مسلم في الإيمان - باب ١٦ - حديث رقم / ٤٤.

بشيء، فذلك هو المقام السامي الذي وصف الله سبحانه مَن تحقق به بأنهم السابقون وأصحاب النفوس المطمئنة.

وإذا انسلّ شيء من حب الدنيا إلى القلب دون أن يغلب على حب الله ورسوله ﷺ فهي منزلة أقل من سابقتها، لأن القلب لابد أن يُشغل بعض الوقت بالتعلق بما دخله ولو بنسبة ، قليلة وقد وصف الله سبحانه هؤلاء بأنهم أصحاب اليمين، والمقتصدون، وأصحاب النفوس اللوامة، وهذه المنزلة تتناقص تدريجياً بحسب ما يزيد في قلوب أصحابها من حب الدنيا حتى يوازي حب الله ورسوله ﷺ فيكون الخطر، فإذا تغلّب حب الدنيا انساق العبد وراء شهواته ومرض قلبه، وعندها تتراكم الشبهات والشهوات، وينحدر العبد في دركات الفسق والفجور حتى يصل إلى الكفر والعياذ بالله سبحانه، وهؤلاء هم الذين وصفهم الله بأنهم أصحاب الشمال والظالمون لأنفسهم ووصف نفوسهم بأنها أمارة بالسوء.

فالناس إذن ثلاثة أقسام:

١ ـ **القسم الأول**: السابقون، وأصحاب النفوس المطمئنة.

٢ ـ **القسم الثاني**: أصحاب اليمين، والمقتصدون، وأصحاب النفوس اللوامة.

٣ ـ **القسم الثالث**: أصحاب الشمال، والظالمون لأنفسهم، وأصحاب النفوس الأمارة بالسوء.

وقد ورد هذا التقسيم في قوله تعالى:

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾

(سورة فاطر / آية ٣٢).

وقوله تعالى: **﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾**

(سورة الواقعة/ الآيات ٧-١٤).

وهنا يرد سؤال:

هل الظالم لنفسه الوارد ذكره في آية فاطر، وأصحاب الشمال الوارد ذكرهم في آيات الواقعة خاص بالكفار والمنافقين أو أنه لعصاة المؤمنين أيضاً ؟

وللإجابة على ذلك لابد من الرجوع إلى أقوال المفسرين، فقد أورد الإمام ابن جرير في تفسيره والإمام ابن كثير والإمام القرطبي وغيرهم[(١)] روايات كثيرة في هذا المجال بعضها مرفوعة وبعضها الآخر آثار من أقوال

---

(١) ينظر جامع البيان للطبري ١٧٠/٢٧، وتفسير ابن كثير ٢٨٣/٤، والقرطبي ١٩٨/١٧.

الصحابة والتابعين.

أما الروايات المرفوعة فهي ضعيفة ولكن الامام ابن كثير قال: (إنها وردت من طرق يشد بعضها بعضاً)[١] ومن هذه الروايات:

ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قال الله تعالى: **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾** فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر)[٢].

وأما الآثار: فمنها ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال:

(إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً، وثلث يجيئون بذنوب عظام.. وتلا هذه الآية: **﴿ثم أورثنا الكتاب..﴾**)[٣].

وعن أبي الجارود قال: سألت محمد بن علي - يعني الباقر – رضي الله

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٥.

(٢) رواه الإمام أحمد ٥/١٩٤، وأورده ابن كثير ٣/٥٥٥

(٣) جامع البيان للطبري ٢٢/١٣٠، وتفسير ابن كثير ٣/٥٥٥

عنهما عن قول الله تعالى: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾ فقال: (هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً)[1].

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**فمنهم ظالم لنفسه**﴾ قال: (هم أصحاب المشأمة) [2].

والذي يترجح من خلال تدبر آيات سورة فاطر وآيات سورة الواقعة أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة لا يمكن حدّه بوصف واحد، وإنما هو درجات كثيرة لها مرتبة أعلى ومرتبة أدنى، فالظالم لنفسه يشمل كل من دخل حب الدنيا إلى قلبه حتى غلب على حب الله ورسوله، فقد يكون ذلك عارضاً سرعان ما يزول ويتغلب عليه نور الإيمان فهو مؤمن مغفور له إن شاء الله، وقد يزداد هذا العارض حتى يصبح عادة متكررة فهو الفاسق العاصي وقد يستفحل حب الدنيا في القلب حتى يسيطر عليه ويملأ جوانبه فلا يبقى فيه أثر للإيمان وهو الكافر والمنافق، فهي درجات كثيرة ترتقي نحو زيادة الإيمان ودركات تتردى في مهاوي الضلال[3] .

وهذا التقسيم له ما يؤيده من أقوال العلماء، فقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (الناس في الإيمان والإسلام على ثلاث مراتب: ظالم لنفسه،

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٥٥٦.

(٢) المرجع نفسه ٣/٥٥٥

(٣) انظر في ملحق هذا الكتاب: الرسم التوضيحي لِبيان هذه الأقسام الثلاثة .

ومقتصد، وسابق بالخيرات، فالمسلم ظاهراً وباطناً إذا كان ظالماً لنفسه فلا بد أن يكون معه إيمان ولكن لم يأت بالواجب) [(١)].

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (إن كان القلب سليماً ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عنها اجتناب المحرمات كلها وتوقي الشبهات حذراً من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب)[(٢)].

وقال الإمام ابن القيم في تعريفه للقلب السليم: (الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره)[(٣)].

فالحد الفاصل الذي يتحول فيه القلب السليم إلى قلب مريض هو الذي يتساوى فيه حب الله ورسوله مع حب الدنيا وشهواتها المباحة أما الشهوات المحرمة فإن دخول أي شيء منها إلى القلب يؤدي إلى مرضه، ومعرفة هذا الحد لا يتأتى لكل إنسان لأن النفس قد تخدع صاحبها فيظن أنه يقدم حب الله ورسوله على حب الدنيا ولا يدري أنه واقع في شِباك الدنيا

---

(١) الإيمان لابن تيمية – ص /٣٥١.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب – ص /٦٥.

(٣) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ١/٧.

ومأسور بقيودها وأن الإيمان يخبو ويضعف في قلبه، وأنه يتدرج من التوسع في المباحات إلى الوقوع في الشبهات حتى يصل إلى دائرة المحرمات.

ولذلك بين الرسول ﷺ أن الطريق لصلاح القلب وسلامته من الأمراض أن يتقى صاحبه الشبهات خشية الوقوع في المحرمات.

روى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

فمن اتقى الأمور المشتبهة واجتنبها فقد حصَّن عرضه من القدح وحصن دينه من النقص، ومن حام حول الحمى واقترب من المحرم يوشك أن يقع فيه لأن من جعل الحاجز بينه وبين الحرام ضعيفاً لم يستطع أن يقاوم المغريات ووساوس الشياطين.

---

(١) رواه البخاري- كتاب الإيمان - باب من استبرأ لدينه وعرضه - ١/١٩ ومسلم -كتاب البيوع - باب أخذ الحلال وترك الشبهات - رقم / ١٥٩٩.

ومصداق ذلك ما رواه الترمذي عن عطية السعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به البأس)[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها) [2].

ولا شك أن في ذلك وقاية للقلب من الأمراض، والوقاية خير من العلاج، ومن الوقاية أن يلتجئ العبد إلى ربه بالدعاء ليثبت قلبه على الإيمان، وهذا ما كان الرسول ﷺ يكثر من الدعاء به.

روى الترمذي عن أنس ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: "يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك"، فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقلبها كيف يشاء) [3].

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة - رقم /٢٤٥٣، وقال حديث حسن.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي -ص / ٦٤.

(٣) رواه الترمذي في القدر -باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن - رقم/٢١٤٠ وقال حديث حسن.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرفه حيث يشاء، ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم مُصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك) [1].

ولنتأمل هذا المثل النبوي البديع فإن فيه بياناً شافياً ووصفاً دقيقاً لكيفية وقاية القلب وحمايته من الأمراض الفتاكة.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

(ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: استقيموا على الصراط ولا تعوَجُّوا، وفوق ذلك داعٍ، يدعو كلما همَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تَلِجْهُ.

فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب

---

(١) رواه مسلم في القدر - باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء - حديث رقم /٢٦٥٤.

كل مسلم)[1].

فانظر إلى هذا التصوير الدقيق: "ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تَلِجْه" فـإن فيه تأصيلاً لقاعدة: الوقاية خير من العلاج، فمن فتح باب المعاصي دخلت آثارهـا إلى قلبه حتى يمرض. وأما إن كان القلب سليماً فإن فيه واعظاً يقظاً وحارساً أميناً يقيه الأخطار ويمنع عنه سمومها .

ولنختم الحديث في هذا الموضوع بما ذكره الإمام ابن القيـم رحمـه الله في بيان أهمية القلب وضروره الإهتمام بسلامته من العلـل وحمايتـه مـن أسـبابها، حيث يقول: (لما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما يشاء، وتكتسب منه الإستقامة والزيـغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسَّك بـه الناسـكون...، فإن العمل السـيء مصـدره عـن فسـاد قصـد القلـب، ثـم يعـرض للقلـب مـن فساد العمل قسوة، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت، ويبقـى لا حيـاة فيـه ولا نور له)[2].

---

(١) رواه الإمـام أحمـد في المسـند (١١١٨٢/٤)، والحـاكم (٧٣/١١١١)، وصححـه ووافقه الذهبي، وأورده الإمام ابـن كثـير في تفسـيره ١٩١/٢، كمـا أورد الإمـام التـبريزي في مشـكاة المصـابيح روايـة أخـرى للحديـث عـن ابـن مسـعود ﷺ، وصححها محقق المشكاة الشيخ الألباني (٦٧/١).

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١١/ ٥-٦، باختصار.

المبحث الثاني

أمراض بسبب الشبهات

إذا لم يسترشد العقل بالشرع القويم و لم يستجب لنداء الفطرة، فإنه يضل ويضطرب ويرمي بصاحبه في خضم اتجاهات متناقضة، ويصبح أسيراً لهوى النفس الأمارة بالسوء والقلب المشحون بالشبهات والشهوات.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (الفتن التي تُعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد) [1].

وقد جمع الله سبحانه بين فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات وذلك في قوله تعالى: ﴿**كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثرَ أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون**﴾ (سورة التوبة / آية ٦٩).

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/١٢.

فمعنى استمتعوا بخلاقهم: أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخَلاق هو النصيب المقدَّر، ومعنى خضتم كالذي خاضوا: أي الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى مايحصل به فساد القلوب والأبدان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أوبالعمل بخلاف العلم الصحيح، فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات[1].

والشبهة عندما تَرِد على العقل ولا تكون موافقة لهوى النفس، فإنها لا تؤثر كثيراً، لأن النفس سرعان ما تدفعها أوتتجاهلها، لكن الذي يلاقي القبول من النفس ما كان موافقاً لهواها، وعندئذ تترسخ الشبهة وتأخذ طريقها إلى القلب، وهي بالتالي شبهة نفسية وليست شبهة عقلية محضة لأنها تجد سندها ومددها من هوى النفس.

وهذا ما أكدته آيات القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى عن المشركين: **﴿إن هي إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل ا لله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظنَّ وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾** (سورة النجم/ آية ٢٣).

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/١٦٦.

كما وصف ربنا سبحانه هؤلاء المشركين بسفه النفس، وذلك السفه أخطر من سفه العقل لأنه هو المحرك له والباعث على إيجاده.

فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَّرغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه﴾ (سورة البقرة /من آية ١٣٠).

ومن هنا كانت الشبهات مرضاً من أمراض النفس، بل هي من أخطر أمراضها، لأن المرض الناتج عن شهوة مجردة لا يستمر على حالة واحدة، فالشهوة تقوى وتضعف، أما المرض الناتج عن شبهة فإنه يستمد مادته من الشبهة العقلية والشهوة النفسية فيكون أكثر تأثيراً وأخطر نتيجة.

والشبهات كثيرة ومتشعبة، ولكن أبرزها وأكثرها انتشاراً عبر العصور، وأشدها خطراً وإبعاداً للناس عن طريق التزكية.. الشبهات التالية: الشرك، والنفاق، والبدعة.

وهذه لمحة سريعة عن كلٍ منها بحسب ما يتسع له مجال البحث:

أولاً: الشرك

الشرك قديم في تاريخ البشر، والبداية التي أوصلت إليه شبهات استطاعت أن تجد لها مدخلاً في أعماق النفوس مدعومة بوساوس الشيطان، حتى أخرجت كثيراً من الأمم عن التوحيد إلى الشرك وعبادة الأصنام وتقديس الأشخاص.

وأصل هذه الشبهات الغلو في محبة الصالحين وتقديسهم بدعوى التقرب

إلى ا الله تعالى، ثم أدى ذلك إلى عبادتهم.

ومصداق ذلك ما بينه ا الله سبحانه من قصة قوم نوح وسبب شركهم وضلالهم وذلك في قوله تعالى مخبراً عن دعاوى قوم نوح: ﴿**وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنَّ وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً**﴾(سورة نوح / الآيتان ٢٣-٢٤).

وقد روى ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس أن ﴿**يغوث ويعوق ونَسراً**﴾ كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كانْ أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يستسقون المطر، فعبدوهم)[1].

واستمرت عبادة الأصنام من بعدهم قروناً بعد قرون حتى وصلت إلى كثير من الأمم في أنحاء الأرض، وكان كل نبي يبعث إلى قومه لينقذهم من الشرك ويدعوهم إلى التوحيد الخالص ويحذرهم من الضلال.

قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا ا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى ا الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾ (سورة النحل/ من الآية ٣٦).

---

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٢٩/٩٩.

وقال سبحانه: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ (سورة الأنبياء / آية ٢٥).

وجاء خاتم الرسل محمد ﷺ وقد استحكمت هذه الشبهة في نفوس مشركي العرب وتأصل الشرك في قلوبهم فاتخذوا أصناماً من الحجارة وغيرها وعمدوا إلى عبادتها بدعوى أنها تقربهم إلى الله تعالى.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾(سورة الزمر /الآيتان ٢-٣).

فقد أخبر الله سبحانه عن المشركين أنهم يدَّعون أن عبادتهم للأصنام التي صوَّروها على صور الملائكة في زعمهم يبتغون منها التقرب إلى الله بشفاعة الملائكة المقربين قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له) (١).

والعلاج الحاسم الذي شرعه الإسلام لمنع تسرب هذه الشبهة إلى النفوس

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٥.

يتكون من جوانب كثيرة، ومن أبرزها:

١ - **التأكيد على التوحيد الخالص** وإفراد الله تعالى بالعبادة والتحذير من الشرك وكل ما يؤدي إليه.

قال تعالى: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾** (سورة البينة /من الآية ٥).

وقال سبحانه: **﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾** (سورة النساء / آية ٤٨).

وقال عز وجل: **﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾** (سورة الزمر /الآيتان ٦٥-٦٦).

وقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (سألت رسول الله ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[1].

٢ - **سد الذرائع لكل ما قد يؤدي إلى الشرك** من اتخاذ التصاوير والتماثيل واتخاذ المساجد على القبور والغلو في محبة الصالحين ونحو ذلك.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺأن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله

---

(١) رواه البخاري في التوحيد -باب قول الله تعالى: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾** -٨/٢٠٧.

اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [1].

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " قد رأيت أن سبب عبادة وَدٍّ ويعوق ونسر واللات، إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها، قال شيخنا[2]: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد أهل الشرك كثيراً يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله..

فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً..

كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد

---

(١) رواه البخاري في الصلاة - باب الصلاة في البيعة - ١/ ١١٢ومسلم في المساجد -باب النهي عن بناء المساجد على القبور -رقم / ٥٣٠.

(٢) يقصد الإمام ابن تيمية رحمه الله.

المصلي ما قصده المشركون، سداً للذريعة " [1].

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالرد على المشركين وإبطال دعاواهم وتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن الأسس العقدية في تزكية النفس، ولكن الذي ينبغي التأكيد عليه هنا أن صاحب الهوى، يبحث عن مبرر لما يريد فتأتي الشبهة العارضة فيزداد تعلقاً بها حتى تصبح عقيدة راسخة وإن كانت مخالفة لعقله وفطرته ولا دليل له عليها إلا اتباع الهوى.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون**﴾ (سورة الجاثية / آية ٢٣).

ومما يدخل في اتباع الهوى أن تميل النفس إلى ما أَلِفته ونشأت عليه مما يخالف الدين الحق، وهذا ما كان مشركو العرب ومن قبلهم من الأمم يتذرعون به في عبادتهم للأصنام.

قال تعالى مخبراً عن دعواهم: ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال أولو**

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/١٨٤-١٨٥.

جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾

(سورة الزخرف/ الآيات ٢٢ - ٢٤).

فالمشركون لا حجة لهم إلا التقليد الأعمى للآباء والأجداد، وهم من أجل هذه الدعوى الواهية مصرون على شركهم اتباعاً لأهواء نفوسهم.

يقول الإمام الغزالي: (من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، وإنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى) [1].

وكما يجب سد الذرائع في وجه كل ما يؤدي إلى الشرك الأكبر كذلك يجب سدها في وجه كل ما يؤدي إلى الشرك في العمل وهو الرياء، لأن كليهما تعلقٌ بغير الله تعالى وصرف القلوب إلى سواه، وإن كان الرياء سببه الشهوة وليس الشبهة، ولذلك سنتحدث عنه في المبحث القادم إن شاء الله.

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٤.

ثانياً: النفاق

النفاق لغة مأخوذ من النفق وهو يدل على انقطاع الشيء وذهابه، وتارة على إخفاء الشيء وإغماضه، ويطلق النفق على السرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، ومنه المنافق فإنه يدخل في الدين من باب ويخرج من باب(١).

والنفاق مرض نفسي خطير يتظاهر صاحبه بأمور الخير وهو يبطن غيرها من الشر، كما أن قوله يخالف فعله، وسره يغاير علانيته، والنفاق قد يكون في العقيدة فيخرج صاحبه من الدين ، وقد يكون في الأعمال فيكون صاحبه على خطر عظيم.

وقد كشف الله سبحانه أسرار المنافقين في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، ولخطورة النفاق وأهله على المسلمين فقد جاء الحديث عنه فيما يقرب من ثلاثمائة وأربعين آية من آيات الكتاب العزيز في سبع عشرة سورةً من السور المدنية(٢)، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وقويت شوكتهم فيها تظاهر عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه بالاسلام، وفعل مثل ذلك طوائف من

---

(١) بصائر ذوي التمييز للفيروزأبادي - ٥/١٠٤. ينظر: تفسير ابن كثير ١١١/٤٧.

(٢) ينظر: المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم - لمحمد جميل غازي - ص / ٦.

أهل الكتاب وبعض الأعراب وانتشر النفاق وتشعبت مسالكه[1].

والمتأمل للآيات الأولى من سورة البقـرة يجـد أنهـا تحدثـت عـن صفـات المؤمنين في آربع آيات، وانتقل السياق بعدها للحديث عن الكفار في آيتين، ثم توالت الآيات الكريمة في وصف المنافقين وكشف خداعهم وبيان مكائدهم في ثلاث عشرة آية. وفي هـذا تنبيـه للمؤمنـين ليحـذروا منهـم ويجتنبـوا صفـاتهم ويبتعدوا عن مسالكهم.

وقد عد الله سـبحانه النفـاق مرضـاً، فقـال تعـالى: **﴿في قلوبهـم مـرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾**(سورة البقرة / آية ١٠).

وهذا المرض هـو مـرض الشـبهة والشـك والحـيرة والاضطـراب والتلـون والخداع الذي اتصفوا به.

روى ابن جرير الطبري في تفسيره عـن عبدالرحمـن بـن زيـد قـال: (هـذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد)[2].

وعن قتادة قال: (في قلوبهم مرض: ريبة وشك في أمر الله جل ثناؤه)[3].

وتقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعـالى: **﴿في قلوبهـم مـرض﴾** يفيـد أن

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٤٧/١١١..

(٢) جامع البيان للإمام الطبري ١٢١/١.

(٣) نفس المرجع السابق.

المرض مختص بقلوبهم مستقر فيها مبالغة في تعلق المرض بهذه القلوب [1].

وقوله تعالى: ﴿**فزادهم ا لله مرضاً**﴾ يؤكد أن الجزاء من جنس العمل وأن هذه القلوب مرضت بالشبهات، إن الشبهات يجر بعضها بعضاً حتى تورث صاحبها الاضطراب والقلق والرجس، كما قال تعالى: ﴿**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون**﴾(سورة التوبة / الآيتان ١٢٤-١٢٥).

والشبهة التي تؤصِّل النفاق في النفوس وتزيد إشتعاله هي الظن بأن مخادعة المؤمنين لا تنكشف، وأن المنافق يحقق بهذه الخديعة مآربه النفسية ومطامعه الدنيئة دون أن يدري بحقيقة أمره أحد.

وقد كشف ا لله سبحانه هذا الخداع وبين أن ضرره يعود على أصحابه، فقال تعالى: ﴿**ومن الناس من يقول آمنا با لله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون ا لله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون**﴾ (سورة البقرة/ الآيتان ٨-٩).

فالخداع الذي يتخذه المنافقون طريقاً لمكاسب موهومة يعود شرُّه عليهم في الدنيا والآخرة، فهم يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون ربهم وأن ذلك نافعهم،

---

(١) النفاق آثاره ومفاهيمه – للشيخ عبد الرحمن الدوسري –ص /١١.

ولا يدرون أنهم يسيئون إلى أنفسهم أكثر من إساءتهم إلى غيرهم، وأن هذا الخداع يوردهم موارد التهلكة.

والأصل أن النفس هي التي تخدع صاحبها، لكن هؤلاء بما تأصل فيهم من الخديعة صاروا مخادعين لأنفسهم وهي أحب شيء إليهم، فخسروا نفوسهم مع أنهم نافقوا من أجل تحقيق المكاسب لها.

قال تعالى: ﴿**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**﴾ (سورة البقرة/ آية ١٦).

وبما أن رأس مال المنافقين الذي يتاجرون به تلك التجارة الخاسرة هو الخداع فإنهم يبذلون كل جهد لئلا ينكشف، ولذلك تراهم يقسمون الأيمان الكاذبة في كل موطن ظناً منهم أن ذلك يستر خداعهم ويغطي على مؤامراتهم ويُكسبهم رضاء المؤمنين.

وقد أخبر ا لله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿**يحلفون با لله لكم ليرضوكم وا لله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين**﴾(سورة التوبة /آية ٦٢).

وقال تعالى: ﴿**يحلفون با لله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم**﴾(سورة التوبة / من الآية ٧٤) .

وقال عز وجل: ﴿**يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن ا لله لا يرضى عن القوم الفاسقين**﴾ (سورة التوبة/ آية ٩٦).

ولذلك فإن الحذر من الفضيحة ملازم للمنافق، والفزع والاضطراب

لا يفارقهم.

قال تعالى: ﴿**يحذر المنافقون أن تنزَّل عليهم سورة تُنَبِّئُهُم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرجٌ ما تحذرون**﴾(سورة التوبة /آية ٦٤).

وقال سبحانه مبيناً حالة الفزع والخوف من الفضيحة التي يتصفون بها: ﴿**وإذا أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون**﴾(سورة التوبة /آية ١٢٧).

ولذلك فإنهم دائماً يتطلعون إلى ما يستر نفاقهم عن الأعين ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مُدَّخلاً لولَّوا إليه وهم يجمحون**﴾(سورة التوبة /آية ٥٧).

وسرعان ما يخرج المنافقون عن نفاقهم إلى الكفر الصريح عندما توشك كفة الكفر أن ترجح، وهذا ما فعلوه في غزوة الأحزاب عندما اشتد الحصار على المسلمين وبلغت القلوب الحناجر، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿**وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً**﴾ (سورة الأحزاب/ آية ١٢) [١].

وهكذا يعيش المنافقون حالة الاضطراب والذعر والحيرة الدائمة والتخبط

---

(١) والمقصود بقوله تعالى: ﴿**الذين في قلوبهم مرض**﴾ أي:في قلبه شبهة وفي نفسه وسواس لضعف إيمانه (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٣).

في كل مسلك وانطماس البصيرة وعمى القلب، وكفى بذلك عذاباً تحترق به أفئدتهم في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وقد ضرب ا لله سبحانه لهؤلاء المنافقين مثلاً يبين ما هم فيه من حالة الانتكاس.

فقال تعالى: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب ا لله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾**(سورة البقرة / الآيتان ١٧-١٨).

فهؤلاء لم يُعرضوا عن الهدى ابتداءً كما فعل الذين كفروا، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه، فقد أبصروا الحق ثم تركوه و لم ينتفعوا به(١)، فكان جزاؤهم انطفاء النور عنهم وبقاءهم في ظلمات الشبهات والشهوات.

لقد طفئ عنهم النور وبقيت نار سوداء تتأجج، ولذلك قال تعالى: **﴿ذهب ا لله بنورهم﴾** و لم يقل بنارهم إشارة إلى عدم إنطفاء النار(٢).

وهذا هو جزاؤهم أيضاً يوم القيامة عند المرور على الصراط، حيث يعطون نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام، ثم ينطفى عنهم ذلك النور، ويحال بينهم وبين المؤمنين بسور له باب، فتحل بهم الحسرات ولا تجديهم النداءات.

---

(١) ينظر: في ظلال القران ١/٤٦.

(٢) النفاق آثاره ومفاهيمه للدوسري – ص / ٣٣.

قال تعالى: ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب.ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر ا لله وغركم با لله الغرور.فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير**﴾(سورة الحديد/ الآيتان ١٣/١٥).

وتشير هذه الآيات الكريمة إلى السمات الأساسية للنفاق وأهله وهي أنهم فتنوا أنفسهم وأهلكوها وضيعوها بالشهوات والشبهات، كما أنهم تربصوا بالحق وأهله، وارتابوا بالوعد الحق والبعث بعد الموت، وغرتهم أماني المغفرة ووساوس الشياطين[1].

وقد تحدث الإمام ابن القيم رحمه ا لله عن النفاق وأهله حديثاً مستفيضاً فكان مما قاله: (لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران والغل والكفران.. رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم العقل المعيشيي: أن الفريقين عنهم راضون.. قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم فأفسدتها)[2].

---

(١) ينظر:تفسير ابن كثير ٤/٣٠٩.

(٢) مدارج السالكين /٣٤٩.

كما قال في وصفهم: (لكل منهم وجهان: وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين، وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون.. خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحر الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين سفن الهالكين)(١).

نفاق الأعمال

هناك نوع من النفاق يتسرب إلى قلوب المؤمنين وينفذ إليها من خلال بعض الذنوب والمعاصي التي تتسم بصفة مشتركة تشبه النفاق العقدي ألا وهي الخديعة، ومن هذه الذنوب الكذب والخيانة وإخلاف الوعد، وقد سمى العلماء هذا النفاق نفاق الأعمال.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

(١) المرجع نفسه ١/٣٥٠.
(٢) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب علامة المنافق - ١/١٤.وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان خصال المنافق - رقم /٥٨،٥٩.

قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[1].

قال الإمام النووي في شرحه لهذين الحديث:

(معناه أن هذه الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وأئتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر.. وقوله ﷺ: " كان منافقاً خالصاً " معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال.. وحكى الخطابي رحمه الله قولاً آخر معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يُخاف عليه أن تُفضي به إلى حقيقة النفاق)[2].

وقد علق الإمام الترمذي في سننه على هذا الحديث فقال: (إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل)[3]. ثم أورد قول الحسن البصري رحمه الله:

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٤٧.

(٣) سنن الترمذي - كتاب الإيمان - ٥/٢١.

(النفاق نفاقان: نفاق العمل ونفاق التكذيب)[1].

ولا يقتصر نفاق الأعمال على هذه الخصال المذكورة، وإنما يشمل كل قول أو فعل أو نية يقصد منها الخديعة والتظاهر بخلاف واقع الأمر، ظناً من المخادع أن تصديق الناس له وأخذهم بظاهره سيحقق له مآربه التي يرجوها.

وهذا ما بينه الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله حيث قال: (وجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها منبهة على ما عداها، إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول والفعل والنية، فنبَّه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخُلف، لأن خُلف الوعد لا يقدح إلا إذا كان العزم عليه مقارناً للوعد، أما لو كان عازماً ثم عرض له مانع أو بدا له رأي فهذا لم توجد منه صورة النفاق)[2].

ومن هنا يتبين أن صور ومظاهر نفاق الأعمال كثيرة والصفة الجامعة بينها تظاهر المرء بخلاف ما يبطن خداعاً للناس وتحقيقاً لمآربه التي توسوس بها نفسه الأمارة بالسوء، وقد تفشى ذلك كثيراً بين المسلمين اليوم حتى صار هذا النفاق تياراً يكتسح بشروره المجتمعات الإسلامية، ويسمى بالانتهازية والوصولية والنفعية بحيث ينتهز الإنسان كل فرصة ليصل إلى مآربه ولو على

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٩٠.

حساب الآخرين، وأصبح لهذا النفاق طرقٌ وحيل وخفايا، كما أقيمت له نظريات تبرره وتنشره، وصيغت له أمثال تشجع عليه، ومنها قولهم إن الغاية تبرر الوسيلة، وإن الفرصة لا تأتي إلا مرة، بل إن الأدهى من ذلك أن يطلق على هذا النفاق الخسيس أوصاف تصف أصحابه بالذكاء والنباهة والفطانة، والحنكة وأن يوصف الأتقياء المتعففون عنه بالغفلة والسذاجة والبساطة في التفكير.

فليحذر هؤلاء من عذاب الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعلموا أن خداعهم وتلونهم سيعود شرُّه عليهم في الدنيا والآخرة.

وقد قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿**يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم، إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً**﴾(سورة النساء /آية ١٠٨).

كما بين الرسول ﷺ أن من شر الناس المداهن المخادع الذي يتظاهر لكل فريق بما يرضيه روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء، بوجهٍ وهؤلاء بوجه)(١).

---

(١) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب خيار الناس - رقم /٢٥٢٦.

ولا شك أن من اعتاد مخادعة الناس ليصل إلى مبتغاه لابـد أن يقـع في إحدى كبيرتين من الكبائر المهلكة:

- **إما الرياء**[1] : بأن يتظاهر بـالصلاح والتقـوى ليكسـب ثقـة الآخريـن ويستر حيله ومآربه النفسية الباطلة، وذلك إذا كان الذيـن يخادعهم من المؤمنين.

- **وإما المداهنة**[2] : بأن يتظاهر بالرضا عن أعمال الكفرة الفسقة والمنحرفـين وعدم المبالاة بمـا يجـاهرون بـه مـن المعـاصي، لكـي يظفـر بمكاسب ومصالح من ورائهم.

وفي كلتا الحالتين يقع المرء في نفـاق الأعمـال، ويوشـك هـذا النفـاق أن يتأصل في نفسه ويترسخ حتى ينقلب في الحالـة الأولى إلى نفـاق العقيـدة، وفي الحالة الثانية إلى الكفر الظاهر.

ولذلك كان السلف الصلح رحمهم الله يحذرون من النفاق حذراً شـديداً مع ما آتاهم الله من علم راسخ وصلاح وإيمان وتقوى.

---

(١) آثرت أن أجعل الحديث عن الرياء في الفصل القادم عند الحديث عـن الشـهوات لصلته الوثيقة بشهوة حب النفس.

(٢) المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر علـى الشيء ويسـتر باطنـه، وفسـرها العلمـاء بأنهـا معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه، والتظاهر بخلاف ما يضمر ملاينـة لـه. (ينظـر: فتح الباري ٥٢٨/١٠)، (لسان العرب ١٦٢/١٣).

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (تا لله لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقه وجلّه وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: " يا حذيفة نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم ؟ قال: لا ، ولا أزكي بعدك أحداً".. تا لله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً، وخوفهم من النفاق شديد ، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.. قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية، فهذه - والله - أمارات النفاق فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية، إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دُعوا إلى الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا، وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان، والخزي والخسران)[١].

- ولنختم البحث في موضوع النفاق باستخلاص مجمل لأبرز جوانب العلاج الذي بينه الإسلام لاستئصال النفاق ومنع انتشاره في المجتمع المسلم،

---

(١) مدارج السالكين ١/٣٥٨-٣٥٩.

ويتمثل ذلك في النقاط التالية:

١ ـ **تربية النفوس على الإيمان** الراسخ والعقيدة الجازمة والتوجه إلى ا لله سبحانه بصدق واخلاص، وتزكية تلك النفوس حتى تسمو وتتطهر من شرورها وتتذوق حلاوة الإيمان فلا يضرها من خالفها ولا تهزها رياح الشبهات والشهوات مهما عصفت بها.

٢ ـ **سد الذرائع الموصلة إلى النفاق** من الكذب والخيانة وإخلاف الوعد والمداهنة ونحو ذلك، وقد بين المولى سبحانه أن الإصرار على هذه المعاصي يؤصل النفاق في القلب، فقال تعالى: ﴿**ومنهم من عاهد ا لله لئن آتانا من فضله لنصدقنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ا لله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون. ألم يعلموا أن ا لله يعلم سرَّهم ونجواهم وأن ا لله علاّم الغيوب**﴾(سورة التوبة / الآيتان (٧٥ -٧٨).

٣ ـ **التحذير من النفاق وعقوبته الشديدة في الآخرة**، وفضح خفايا المنافقين وكشف خداعهم والشبهة التي قامت في نفوسهم بظنهم أن هذا الخداع يفيدهم ويحقق مآربهم وقد حفلت سور القرآن الكريم بذلك وبخاصة أوائل سورة البقرة، وسورة التوبة، وهو ما سبق بيانه في ثنايا هذا الموضوع.

ثالثاً: البدعة

شرع الله سبحانه لعباده الدين القويم والطريق المستقيم، من تمسك به فقد نجا، ولكن القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان كثيراً ما تغزوه سهام الشهوات والشبهات ووساوس الشياطين، فيحيد عن الاعتصام بالكتاب والسنة، ويقع في البدع المخالفة لدين الله، فتصده عن طريق التزكية بشبهات باطلة تؤدي إلى مرض القلب وتدسية النفس.

ولقد أوضح الله سبحانه الطريق الحق وحذر من اتباع السبل المضلة.

فقال تعالى: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾** (سورة الأنعام/ آية ١٥٢).

وقال سبحانه: **﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾**(سورة الأنعام /الآية ١٢٦).

وقد أكد الرسول ﷺ على ضرورة الاتباع الكامل وحذر من الابتداع في أمرٍ من أمورِ الدين.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ).

وفي رواية لمسلم: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[1].

وإذا كان هذا الحديث النبوي يشمل كل ما يخالف الكتاب والسنة من البدع المحدثة، فإن هذه البدع يمكن تقسيمها إلى قسمين:

١ ـ بدع زيادة على ما شرعه الله ورسوله وغلو في الدين، وهذه البدع وقع بها بعض السائرين في طريق التزكية فانحرفوا عن هذا الطريق قليلاً أو كثيراً، وهم يظنون أنهم أهل التزكية وفرسانها، ولأهمية هذا الموضوع سنخصص له باباً مستقلاً نناقش فيه الإنحرافات عن المنهج الاسلامي في التزكية.

٢ ـ بدع نقص عما أمر به الإسلام بشبهة تسرَّبت إلى بعض النفوس فأعرضوا عن طريق التزكية وتقاعسوا عن الطاعات، متذرّعين بتلك الشبهة التي وافقت هوى النفس، وبذلك أدت تلك البدعة إلى مرض من أمراض النفس يصدها عن التزكية بسبب ما دخلها من شبهات مضلة، وأبرز ما يهمنا في هذا المجال، بدعتا الإرجاء والجبر.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الصلح - باب إذا أصلحوا على صلح جور فالصلح مردود، وصحيح مسلم - كتاب الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور - رقم/١٧١٨

أولاً: بدعة الإرجاء

وهذه البدعة ظهرت بذرتها الأولى منذ فجر الإسلام وسمي القائلون بهـا باسم المرجئة، لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان، فيقولون: لا تضر المعصية مـع الإيمـان كمـا لا تنفـع الطاعـة مـع الكفـر، وأن الإيمـان تصديـق القلـب وقـول اللسان، والأعمال ليست منه حتى وصل بهم الأمر إلى الإستهانة بـالعمل مـن حيث اتصاله بأصل الإيمان، ومن حيث الجـزاء في الآخـرة، وادعـوا أن الإيمـان الذي في القلب يكـون تامـاً بـدون شـيء مـن الأعمـال، وأن الإيمـان في قلـب شارب الخمر والزاني وتارك الصلاة مثل الإيمان في قلب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[(١)]!.

وقد تسربت هذه الانحرافات إلى المرجئة عن طريق شـبهات استحكمت في نفوسهم بسبب تحكيم عقولهم في النصوص الشرعية، وإعراضهـم عـن فهـم دلالات الألفاظ القرآنية عن طريق الكتاب والسنة.

ولذلك حـذر أئمـة السـلف رحمهـم الله مـن بدعـة المرجئة وبينـوا خطرهـا

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في المراجع التاليـة: التبصـير في الدين للإمـام أبـي المظفـر الاسـفراييني ص/٩٧، والفـرق بـين الفـرق للإمـام عبـد القـاهر البغـدادي ص/١٩٠ -١٩٥، والملـل والنحل للإمام الشهر ستاني ص /١٣٩. وكتاب الإيمان للإمام ابن تيمية ص/١٨٣، وما بعدها،وتاريخ المذاهب الاسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ١/١٣٢-١٣٧.

وضررها ، وقد أورد الإمام أبو بكر الآجري رحمه ا لله في كتابه (الشريعة) عدداً من أقوالهم في ذلك، ومنها: قول الزهري رحمه ا لله: (ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على الملة من هذه) يعني الإرجاء [(1)].

ثم أفاض في رد دعاوى المرجئة وإبطال حججهم[(2)] مبيناً أن من قال بهذه البدعة فقد أعظم الفرية على ا لله عز وجل وأتى بضد الحق، لأن قائل هذه المقالة يزعم أن من قال لا إله إلا ا لله لم تضره الكبائر أن يعملها ولا الفواحش أن يرتكبها، وأن البار والفاجر سواء، وهذا منكر مخالف لصريح قوله تعالى: **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾** (سورة الجاثية /آية ٢١).

وقوله عز وجل: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾** (سورة ص / آية ٢٨).

وقد أفاض الإمام ابن تيمية رحمه ا لله في الرد على شبهات المرجئة التي أوصلتهم إلى هذا الإنحراف، وذلك في كتابه القيم (الإيمان)، وأول شبهة دعواهم أن الإيمان يقصد به التصديق فقط، فَبَيَّنَ رحمه ا لله أن ألفاظ الإيمان والإسلام والنفاق والكفر قد بَيَّنَ النبي ﷺ المراد منها بياناً لا يحتاج معه إلى

---

(١) الشريعة – للإمام الآجري – ص/١٤٣.

(٢) ينظر: المرجع نفسه ص/١٤٥–١٤٨

الاستدلال بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان ا لله ورسولهﷺ، فإنه شاف كاف، بل إن معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة، وكل من تأمل قول المرجئة في معنى الإيمان علم أنه مخالف للرسول ﷺ وأن طاعة ا لله ورسوله لابد منها للمؤمن[1]، ثم قال رحمه ا لله:

(وأهل البدع إنما دخل عليهم هذا الداخل، لأنهم أعرضوا عن هذه الطريق ـ أي في الاستدلال ـ وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان ا لله ورسوله، وكل مقدمات تخالف بيان ا لله ورسوله فإنها تكون ضلالاً)[2].

وبعد أن فندّ شبهات المرجئة وأظهر بطلانها أردف قائلاً: (كان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، العمل من الإيمان والإيمان من العمل....فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق بعمله، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه، و لم يعرف بقلبه، و لم يصدق بعمله، كان في الآخرة من الخاسرين)[3].

فالقلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن

---

(١) الإيمان – للإمام ابن تيمية – ص/ ٢٧٢

(٢) المرجع نفسه –ص/٢٧٣

(٣) المرجع نفسه – ص/٢٨٠

بالضرورة، لايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: (.,. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1].

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله كيف أن الشيطان يفسد على العبد دينه بأن يفتح له باب الإرجاء حتى يوقعه في الكبائر ويزين له فعلها ويحسنها في عينه بدعوى أن الإيمان هو التصديق فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق وهي قوله: " لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة " والظفر به في عقبه البدعة أحب إليه لمناقضتها الدين، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها ومعارضة الحق بالباطل، وتعمية الحق على القلوب، وفتح باب تبديل الدين جملة، فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين[2].

وفعلاً فقد انتشر هذا الفكر الإرجائي بين بعض المسلمين وكان عاملاً مشجعاً لإقدامهم على مقارفة المعاصي والمنكرات والتهوين من أمرها

---

(١) رواه البخاري في الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه - ١ /١٩.ومسلم في البيوع _رقم /١٥٩٩.

(٢) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم ١/٢٢٣-٢٢٤

والتكاسل عن فعل الطاعات، وتحوّل الإرجاء من فكر نظري إلى واقع عملي تزايد مع امتداد الزمن، حتى أدى بهؤلاء إلى التفلت من التكاليف الشرعية والانعماس في المنكرات دون أي رادع ما دام ذلك لا يؤثر في حقيقة الإيمان بحسب زعمهم.

ووصل الواقع بالأمة المسلمة إلى ما نراه اليوم بعد أن تزايد خط الانحراف وتغيرت نظرة الكثيرين منهم للقيم، واستحكمت فيهم الشبهات والشهوات، وانطلقت الدعاوى التي تبرر هذا التفلت من الدين بأن العبرة بسلامة القلب وطهارة النفس وأن المؤمن يكفيه مجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان [1]، وأثّرت هذه الشبهة في نفوس المسلمين اليوم أكثر مما كانت تؤثر من قبل حينما كانت جذوة العقيدة حيّة في نفوس السابقين.

ثانياً: بدعة الجبر

ومن البدع الضالة التي كان لها أثرها السيئ في صد الناس عن الطاعات وإبعادهم عن طريق التزكية، بدعة الجبر التي نادت بها طائفة الجبرية، حيث ادعوا أن الإنسان مجبر في أفعاله، ولا اختيار له في شيء منها، وأن كل ما

---

(١) ينظر كتاب (واقعنا المعاصر) للإستاذ محمد قطب - ص /١٦٥، وما بعدها، فقد أجاد حفظه الله في تشخيص هذا الداء وبيان آثاره في واقع الأمة.

ينسب إليه من الأفعال فهو على سبيل المجاز كما يقال سقط الجدار وجرى الماء ودارت الرحى وتحرك الحجر، فقوام هذه البدعة نفي الفعل حقيقة عن العبد ونفي الإرادة والاختيار عنه [1].

ولقد كان لهذه البدعة أثرها السيئ في تبرير العصاة لما يقعون فيه من معاصي والاحتجاج بالقدر عما يقترفونه من منكرات.

وقد كان المشركون يتذرعون بالقدر ليلقوا عن أنفسهم مسؤولية الشرك والضلال.

قال تعالى: **﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾**(سورة الأنعام / آية ١٤٨).

وقال سبحانه مخبراً عن دعواهم الباطلة: **﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما**

---

(١) ينظر تفصيل هذه البدعة والرد عليها في المراجع التالية: التبصير في الدين ص/١٠٧، والفرق بين الفرق ص /١٩٩، والعبودية للإمام ابن تيمية ص / ٢١-٢٥، وشرح العقيدة الطحاوية ص / ٤٣٣-٤٤٢، وتاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص / ١١٥ - ١٢٣، وعقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص /٩٦-١٢٠، وكتاب القضاء والقدر في الإسلام للدكتور فاروق الدسوقي، وتعريف عام بدين الإسلام للشيخ علي الطنطاوي ص ١٥٢-١٦٢.

عبدناهم، ماهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾(سورة الزخرف / الآيتان ٢٠-٢١).

فقد بين عز وجل أن هذه الشبهة الباطلة أدت بهؤلاء إلى الضلال فاتبعوا ما أملت عليهم ظنونهم وأوهامهم الفاسدة.

ومنشأ هذا الضلال عدم التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فالإرادة الكونية القدرية لا تدخل في نطاق التكليف وهي التي كان بها القدر ونظامه، وأما الإرادة الشرعية الدينية فهي التي أناط الله بها تكليف الإنسان وثوابه وعقابه لأنها تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية[1].

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (هؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهي ربوبيته تعالى لكل شيء، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الديني الشرعي، على مراتب من الضلال، فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عامّاً فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون به الشريعة، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾**، وقالوا: **﴿لو شاء الله ما عبدناهم﴾**، وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كل من احتج بالقدر

---

(١) عقيدة المؤمن للشيخ أبو بكر الجزائري - ص / ٣٧٤، وينظر شرح العقيدة الطحاوية ص/ ٤٤٥.

فإنه متناقض، فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل، فلا بد إذا ظلمه ظالم.. أن يدفع هذا القدر، وأن يعاقب الظالم بما يكفُّ عدوانه وعدوان أمثاله، فيقال له: إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك، وإن لم يكن حجة بطل أصل قولك: إن القدر حجة.

وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية لا يطّردون هذا القول ولا يلتزمونه، وإنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم)[1].

ولا شك أن كل عاقل يفرق في نفسه بين ما يرد عليه من أمر اضطراري لا اختيار له فيه، وبين ما يختاره بنفسه ويفعله بمحض إرادته، وقد أثبت الله سبحانه للعباد الكسب والإرادة والاختيار، وما أكثر الآيات القرآنية التي ورد فيها قوله: يعملون، يعقلون، يكسبون، يصنعون، ويكفي في ذلك قوله سبحانه: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾(سورة المدثر / آية ٣٨)، ولو لم يكن للعبد اختيار فتكليفه بالتكاليف الشرعية محال، والثواب والعقاب عبث وظلم، تعالى الله عن ذلك[2].

يقول سبحانه: ﴿**إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً**﴾(سورة النساء / آية ٤٠).

---

(١) العبودية – للإمام ابن تيمية – ص / ٢١.

(٢) ينظر التبصير في الدين – للإمام الإسفراييني – ص / ١٠٧.

والواقع أن الذي مهد الطريق لتسرب هذه الشبهة كونها موافقة هوى النفس، ولذلك نجد أهل المعاصي يتذرعون بها لتبرير فسقهم، فإذا نصحت أحدهم أجابك على الفور: إن الله لم يكتب لي الهداية، وإذا أرشدته إلى القيام بطاعة ربه قال لك: حتى يهديني الله ! ولقد انتشرت هذه الأغاليط ـ للأسف ـ بين العامة، حتى وصل الحال بالمسلمين إلى ما نراه من بعد عن ربهم وانغماس في المعاصي وذل وهوان وتقاعس وخذلان، نتيجة لتجاهل الإنسان لحريته التي وهبه الله إياها، وما زوَّده به من قوة وإرادة يملك أن يتجه بهما إلى الخير أو الشر[1].

ويقال لهؤلاء: الهداية بيد الله سبحانه، لكن الله جعل لها أسباباً لابد من طلبها والسعي إليها بالعمل الصالح والتوبة النصوح وسلوك طريق المهتدين، أما أن يُخلِد الإنسان إلى الهوى ويقعد عن الطاعة ويتذرع بالقدر، فهذا شقاء وحمق وضلال.

والذي يفضح دعوى هؤلاء أنهم لا يقعدون عن طلب الرزق ويحرصون عليه، فلماذا لا يسعون في طلب الهداية ؟ وكيف يصرون على عصيانهم مع أنهم يترقبون الهداية بزعمهم ؟

تقول مع العصيان: ربي غافر صدقتَ ولكنْ غافرٌ بالمشيئة

---

(١) ينظر: عقيدة المسلم – للشيخ محمد الغزالي – ص / ١٠٥.

وربـك رزاق كـما هو غـافـر   فلمْ لمْ تصـدِّق فيهـما بالسـويّـة ؟
تسـيء به ظـنـاً وتحسـن تـارةً   على حسب ما يقضي الهوى بالقضية[1]

وقد وعد الله سبحانه الذين يطلبون الهداية بصدق أن يوفقهم إليها ويثبتهم عليها ويزيدهم منها، فقال تعالى: ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم**﴾(سورة محمد / آية ١٧).

فمن سلك طريق الهداية وفقه الله تعالى ليكون من أهلها، ومن سار في طريق الغواية والضلال زاده الله ضلالاً وأعمى بصيرته، حتى يرجع عن ضلاله، فإن أراد الهدى فليلزم طاعة ربه، فقد قال تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾(سورة النور / آية ٥٤)

وفي الختام نجمل أبرز نقاط العلاج الذي بينه الإسلام لاستئصال أمراض الشبهات من النفس وبخاصة شبهتي الإرجاء والجبر، **ويتمثل ذلك في جانبين:**

---

(١) الهدى والضلال – للشيخ أحمد عز الدين البيانوني – ص / ٣٧.

١ ـ الاعتصام بالكتاب والسنة:

لا ينجي من فتن الشبهات إلا الاتباع الكامل لما جاء به الرسول وما مضى عليه الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان، فمن طلب الهداية بهذا الاتباع هداه الله وبصَّره بطريق الحق.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن فتنة أهل البدع: (فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال، ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دِقِّ الدين وجلِّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام)[1].

٢ ـ الحرص على العلم النافع من أهله:

فالعلم النافع سلاح فتاك لدحض جيوش الشبهات فيدحر شرورها، ويضيء الطريق للحائرين.

والعلم النافع له أهمِّية كبرى في تزكية النفس وتطهيرها من أمراضها وآفاتها، وذلك عندما يتلقاه طالبه عمن يُوثَقُ في دينه وتقواه وبعده عن الأهواء المضلة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان – لابن القيم ٢/١٦٥.

وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن من أبرز أسباب تسلط الشبهات قلة العلم، فقال: (فتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد، وحصول الهوى، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى)[1].

إلى أن قال: (وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حقٍ ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى مُتبَّع، فهي من عمىً في البصيرة وفسادٍ في الإرادة)[2].

وهذا الفهم الفاسد ينشأ من قلة العلم، فيرى بدعته هي الحق فهو بالتالي لا يبادر إلى التوبة منها والإقلاع عنها، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (ولهذا قال أئمة الإسلام كسفيان الثوري وغيره: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها.

ومعنى قولهم إن البدعة لا يتاب منها: أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ولا رسوله، قد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه. ولكن التوبة منه

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/١٦٥.

(٢) المرجع نفسه ٢/١٦٦.

ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق)[1].

ولذلك اشترط في العالم المتحقق بالعلم أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم والتأدب بآدابهم، وقد أفاض الإمام الشاطبي رحمه الله في بيان هذه المسألة ثم قال: (وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالماً اشتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك، وقلما وجدت فرقة زائفة ولا أحداً مخالفاً للسنة إلا وهو مفارق لهذا الوصف.. فلما تُرك هذا الوصف رفعت البدع رؤوسها، لأن ترك الاقتداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى)[2].

فالاعتصام الكامل والعلم النافع المأخوذ عن أهله الثقات هما الحصن من شرور البدع والشبهات المضلة، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٩.

(٢) الموافقات في أصول الأحكام - للإمام الشاطبي - ١/٥٥.

المبحث الثالث

أمراض بسبب الشهوات

الشهوات غرائز فطرية ترغب فيها النفس وتميل إليها، وقد وهب الله سبحانه هذه الغرائز للإنسان وجعلها جزءاً من تكوينه ليؤدي دوره في الحياة ويسعى في صلاحه وتحقيق ما يجلب له الخير ويدفع عنه الشر ويحفظ بقاء الجنس البشري.

وقد عبر الله سبحانه عن هذا الميل الفطري في الإنسان لكل ما يجلب له الخير ويدفع عنه السوء ، فقال تعالى على لسان النبي ﷺ: ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسني السوء**﴾(سورة الأعراف / من الآية ١٨٨)، ولذلك يميل الإنسان بفطرته إلى حب المال الذي يحقق به ما يرجوه من خير لنفسه، وقد وصفه الله سبحانه في هذا الحب فقال: ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾(سورة العاديات/ آية ٨).

ولكن هذه الدوافع الفطرية إذا لم تنضبط بميزان الشرع القويم، و لم تلتزم بالمنهج الإسلامي الذي يحفظ للنفس البشرية كرامتها وصحتها وإستقامتها، ويرقى بها لتنال سعادة الدارين، فإنها ستغرق في شهوات الدنيا العاجلة، وتنحرف ميولها الفطرية لتتحول إلى أمراض تشوه طبيعة الإنسان، وتشغله عن العمل لصلاح آخرته حتى يحل به الشقاء.

وقد أبانت الآيات القرآنية هذه الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾**(سورة آل عمران / الآيتان ١٤-١٥).

فالله سبحانه يخبر عما زَيَّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنوع الملاذ من النساء والبنين والأموال، وأنه جعل تلك اللذائذ والشهوات متاع الحياة الدنيا الفانية، فهذه هي قيمتها التي ينبغي ألا تتعداها وألا تطغى على النعيم الحقيقي في الآخرة الذي لا ينقضي ولا يزول[1].

ولا شك أن الذي يجعل الآخرة نصب عينيه فإنه يسعى دائماً لتسخير هذه الشهوات في مرضاة ربه عز وجل، وأما من تعلقت نفسه بالدنيا وامتلأ قلبه بحبها فإنه سيجعل من شهواته هدفاً ومقصداً حتى يكون عبداً لها، وعندها سيحرص عليها، ويلهث وراءها بكل ما أوتي من قوة، ويبيع دينه بعَرَضٍ من أعراضها الزائلة.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/٣٥١-٣٥٢.

ومصداق ذلك الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن كعب بن مالك الأنصاري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **(ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)**[1].

وفي رواية: **(ما ذئبان ضاريان جائعان في غنم افترقت أحدهما في أولها والآخر في آخرها بأسرع فساداً من امرئ في دينه يحب شرف الدنيا وماها)**[2]

وهذا مثل عظيم ضربه النبي ﷺ لبيان مدى الفساد الذي يلحق المسلم في دينه وإيمانه عندما يحرص على المال والشرف في الدنيا ويجعل من هذا الحرص هدفاً قائماً بذاته يسعى لتحقيقه دون ضوابط ولا حدود، وعندها سيلحق بدينه الهلاك المحقق وسيخسر آخرته لينال عرضاً دنيوياً زائلاً.

ولو تأملنا دقة هذا المثل النبوي لعرفنا عظم المصيبة، فالذئبان الجائعان إذا أرسلا في قطيع من الغنم وأحاطا به من جانبيه وقد غاب الراعي الحارس لذلك القطيع، فإنهما سيهلكانه ويفترسانه، ولن ينجو من الغنم إلا القليل، وكذلك

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده - ٣/٤٥٦،٤٦٠، والترمذي رقم / ٢٣٧٦، وقال: حديث حسن صحيح، والبغوي في شرح السنة ١٤/٢٥٨.

(٢) رواه أبو يعلى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الملك وعبد الله بن محمد بن عقيل وقد وثقا، كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٥٣.

يعد الحرص الفاجع من أصحاب الدنيا لبلوغ الشهوة وجمع الأموال دون رقابة أو وازع إيماني أكثر إفساداً لدين المسلم من إفساد الذئبين الجائعين[1].

وهكذا يظهر خطر انحراف الشهوات عن طريقها، وتحولها إلى مرض يفتك بالنفس ويحيل الإنسان إلى حيوان كاسر، شغله الشاغل أن يرضي أهواءه ولو على حساب إيذاء الآخرين وظلمهم.

والأصل الذي يؤدي إلى هذا الإنحراف والطغيان إتباع الهوى وتقديم حب الدنيا على طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿**فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾(سورة النازعات / الآيات ٣٧-٤١).

فإيثار الحياة الدنيا سبب الأمراض التي تعتري النفوس وسبب الشقاء الذي يصيبها.

ولهذا لابد من التفصيل في تشخيص هذا الداء العضال وبيان نتائجه الخطيرة وطرق المعالجة منه والسلامة من آفاته، وذلك من خلال الحديث عن الشهوات التالية:

---

(١) ينظر شرح هذا الحديث في الرسالة القيمة التي ألفها الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله بعنوان: (شرح حديث ما ذئبان جائعان).

١ ـ شهوتا حب النفس وحب الجاه.

٢ ـ شهوة حب المال.

٣ ـ شهوة البطن.

٤ ـ شهوة الفرج.

ولنبدأ بالفقرة الأولى:

أولاً: شهوتا حب النفس وحب الجاه

من أقوى الشهوات وأكثرها عمقاً في النفس حب الإنسان لذاته وحرصه على جلب الخير لها ودفع الضر عنها وتحقيق ما يمكن من الكمال لها، ومن ذلك ينشأ الخوف والرجاء اللذان يوجهان اتجاه الحياة ويحددان للإنسان أهدافه وسلوكه ومشاعره وأفكاره ومنهج حياته[1].

ومن هنا تبرز أهمية شهوة حب النفس وخطر انحرافها وتحولها عن منهج الإسلام في تزكية النفوس، وتماديها حتى تبحث عن الكمال المزيف الموهوم وهي تظن أن هذا هو الذي يحقق سعادتها، وما ينتج عن هذا الانحراف من أمراض خطيرة منشؤها الحرص على تحقيق رغبات الذات بكل ما يمكن من طرق وأساليب.

ومن هنا تلتقي شهوة حب النفس مع شهوة حب الجاه والشهرة بين الناس وتحقيق المنزلة بينهم، حتى تذعن له القلوب ويحظى بما يأمله من حظوظ النفس المادية والمعنوية.

وقد بين الإمام الغزالي رحمه الله خطر الانزلاق مع شهوة الجاه، وضرورة مجاهدة النفس لتلزم تواضعها وتبتعد عن طلب الشهرة والسعي لبلوغها، ومن أقواله في ذلك: (اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى

---

(١) ينظر: دراسات في النفس الإنسانية لمحمد قطب – ص / ٧٦.

المال ملك الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، وكما أن الغني هو الذي يملك الدراهم والدنانير، أي يقدر عليهما ليتوصل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملك قلوب الناس، أي يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها في أغراضه ومآربه)[1].

ثم قال: (ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال في الشخص إما بعلم أوعبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال في صورة أو قوة في بدن أو شيء مما يعتقده الناس كمالاً ")[2].

ولقد بلغت شهوة حب الجاه في قلوب الكثيرين مداها وأصبحوا يتنافسون على بلوغها ويبذلون من أجلها الأموال والطاقات، ويتحايلون على الوصول إليها بالحيل والخداع ويقدمونها على شهوة حب المال، **وذلك للأسباب التالية**[3]:

١ ـ لأن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو العابد الذي تقرر له جاه في القلوب لو أراد اكتساب المال لبذل له الناس من أموالهم وأعمالهم ما يحقق له ذلك.

---

(١) إحياء علوم الدين - ٢٧٨/٣.

(٢) المرجع نفسه ٢٧٩/٣.

(٣) ينظر إحياء علوم الدين - ٣-٢٧٩-٢٨٠.

٢ ـ أن المال معرض للتلف أو الزوال ويتطرق إليه الخطر، أما الجاه فإنه إذا دخل القلوب ملكها واستقر فيها فلا تمتد إليه الأخطار إلا إذا حصل ما يغير نظرة الناس لصاحب الجاه.

٣ ـ أن ملك القلوب يسري ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومقاساة، فالناس إذا أعجبوا بشخص أكثروا مدحه والحديث عنه وانتشر صيته بينهم.

ولذلك قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

(وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد هلاكاً من الحرص على المال، فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف)[1].

ثم بين رحمه الله أن الحرص على الجاه والشرف قسمان[2]:

أحدهما: طلب الجاه والشرف بالولاية والسلطان والمال.

والثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية كالعلم والعمل والزهد وهو أخطر من القسم الأول وأشد فساداً، لأنه يؤدي إلى الرياء المحبط

---

(١) شرح حديث ما ذئبان جائعان، ص / ٢٠.

(٢) المرجع نفسه ص / ٢١، ٣٦.

للأعمال والموجب لسخط الله سبحانه، بالاضافة إلى أمراض كثيرة سببها تلك الشهوات والأهواء.

ولنستعرض أبرزها بشيء من التفصيل:

أمراض النفس التي تنتج عن شهوتي حب النفس وحب الجاه:

وهي التي سماها العلماء المحرَّمات القلبية[1]، وتزداد حدة هذه الأمراض كلما ازداد الانحراف في شهوتي حب النفس وحب الجاه، وتشمل الأمراض القلبية والنفسية التالية:

١ ـ الرياء:

وهو من الأمراض المهلكة التي تبطل الأعمال فلا ينتفع بها صاحبها يوم القيامة وإنما تكون وبالاً عليه، وهو الشرك الخفي الذي إذا استفحل وتأصل في النفس فقد يؤدي إلى حقيقة الشرك، لأنه تمزيق وتشتيت للقلب البشري فلا يتوجه إلى خالقه في العبادة وإنما يتوجه للمخلوقين طلباً لرضاهم[2].

وقد سبق الحديث مراراً عن خطر الرياء وضرورة الإخلاص في الطاعات، وما ورد في ذلك من آيات كريمة وأحاديث نبوية.

---

(١) ينظر كتاب: النصيحة الكافية للإمام شهاب الدين أحمد البرنسي الفاسي ص / ١٠٨.

(٢) المستخلص في تزكية الأنفس للشيخ سعيد حوى – ص / ١٥٢.

فمن الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾[1].

ومن الأحاديث قصة الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة لأنهم يراؤون بأعمالهم: رجل استشهد، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فتصدق لايريد بعمله وجه الله سبحانه "[2].

فما الذي يدفع العلماء والعباد للرياء مع علمهم بأنه آفة مهلكة ؟

يجيب عن ذلك الإمام الغزالي رحمه الله فيقول: " إن الرياء من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا أنفسهم عن الشهوات وصانوها عن الشبهات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصاً من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق و لم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس و لم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت

---

(١) سورة البينة / من الآية ٥.

(٢) الحديث: رواه مسلم - رقم / ١٩٠٥.

أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء.. وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام، وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات، وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين، فأصابت النفسُ في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يرى أنه مخلص في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الأعمال)[1].

ولا شك أن الرياء طرقاً كثيرة، وأنه قد يكون الباعث الأساسي للعمل وقد يعرض أثناء العمل أو بعده، وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال في جوابه على **تساؤل عمن يعمل العمل لله ولغيره** فلا يكون محضاً ولا للناس محضاً هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟ **فأجاب رحمه الله** [2]:

(هذا القسم تحته أنواع ثلاثة:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٧٥، باختصار يسير.

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/١٢٤-١٢٥.

أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في أثنائه فيكون ، فهذا المعوَّل فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها.

الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قَلَب نيته.

ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة كالصلاة ، وإلا لم تجب ، كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الثالث: أن يبتدئها مُريداً بها الله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة.. فهذا لا يقبل منه العمل.. فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، فالاخلاص هو تجريد القصد طاعة للمعبود.. وقد دلت السنة الصريحة على ذلك كما في قوله ﷺ: (قال الله تبارك وتعالى: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته

وشركه)[1].

ولهذا كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى يحرصون على محاسبة نفوسهم ومراقبة أحوالها ويكرهون الشهرة غاية الكراهة ويسترون أعمالهم ويذمون أنفسهم.

وقد أورد الإمام ابن رجب الحنبلي عدداً من أقوالهم وأفعالهم في هذا المجال، ولكنه نبّه على آفة دقيقة قد لا يلاحظها المرء وهي أن ذم النفس أمام الناس مدخل من مداخل الشيطان، وباب من أبواب الرياء، يقول رحمه الله: (هذا باب واسع جداً، وههنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يُري الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبَّه عليه السلف الصالح)[2].

ولهذا يجب على المسلم أن يراقب خواطر نفسه ويحاسبها على نيَّاتها ويكون لها الحارس الأمين الذي يبعد عنها غوائل شهوة حب النفس وحب الجاه، وأخطار هذا المرض الخفي الذي لا تظهر بداياته في النفس إلا باليقظة الكاملة وسد منافذ الشيطان ووساوسه.

وهذا ما أشار إليه الإمام ابن الجوزي رحمه الله بقوله: (وقد لبّس إبليس

---

(١) رواه مسلم – كتاب الزهد – باب تحريم الرياء – رقم / ٢٩٨٥.

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان – للإمام ابن رجب الحنبلي – ص / ٥٦.

على جماعة من قوّام الليل فتحدثـوا بذلـك بالنهـار، فربمـا قـال أحدهـم: فـلان المؤذن أذّن بوقت، ليعلم الناس أنه كان منتبهاً، فـأقلُّ مـا في هـذا إن سَـلم مـن الرياء أن يُنقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية فيقل الثواب)[1].

٢ ـ الكبر والتعالي على الناس[2]:

الكبر صفة من صفات النفس المذمومة، ومعنـاه أن يـرى الإنسـان نفسـه فوق الآخرين فيحصل في قلبـه اعـتزاز وزهـو وتعـالٍ علـى النـاس وازدراء لهـم وترفع عن مجالستهم،وأسباب هذا التكبر كثيرة منها:

١ ـ التكبر بالعلم فيرى نفسه أنه أكثر علماً وأن الآخرين جهلة لا قيمة لهم.

٢ ـ التكبر بالعمل والعبادة فيظن أن مقامه أعظم عند ربه وأن النـاس هـالكون وهو الناجي.

٣ ـ التكبر بالحسب والنسب واحتقار من ليس له ذلك النسب.

٤ ـ التفاخر بالجمال وأكثر ما يجري ذلك بين النساء.

٥ ـ التكبر بالمال فيتعالى على الفقراء والمساكين ويحتقرهم.

٦ ـ التكبر بالقوة وشدة البطش.

٧ ـ التكبر بالأتباع والأنصار والأقارب.

---

(١) تلبيس إبليس – للإمام ابن الجوزي – ص / ١٤١-١٤٢.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين – ٣/٣٣٦-٣٥٨.

وقد ورد التحذير من التكبر في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور**﴾(سورة لقمان / آية ١٨).

ومعنى ﴿**لا تصعر خدك**﴾ أي: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم، ولكن أَلِن جانبك وابسط وجهك إليهم[(١)].

ومن الأحاديث ما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال:

(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[(٢)].

وفي هذا الحديث تخويف للنفس من الاستجابة لدواعي الكبر، وبيان

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٤٦/٣، وأصل الصَّعَر داء يأتي للبعير فيلوي منه عنقه ويميله، فشبه من يلوي عنقه تكبراً على الناس بذلك المرض الذي يصيب الإبل، ينظر لسان العرب - ٤٥٦/٤.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر - رقم / ٩١.

دقيق لحقيقة الكبر المذموم، وأنه ليس في الشكل واللباس وإنما هو فيما يستقر في القلب من احتقار للآخرين وإعراض عن قبول الحق، فقوله ﷺ: " الكبر بطر الحق " أي دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، وأما " غمط الناس " فهو احتقارهم[1].

وينشأ من هذا التكبر والاحتقار للناس تتبع عوراتهم والبحث عن أخطائهم وهفواتهم مع ستر محاسنهم مهما كانت كثيرة.

وقد أشار الإمام ابن القيم رحمه الله إلى هذه الآفة فقال: (وهذا كثير بين الناس، يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوئ فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه، فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته فجعلها فاكهته ونُقْله)[2].

٣ ـ الإعجاب بالنفس وحب المدح من الناس:

وهذه آفة اشد خطراً من سابقتها وأكثر تأثيراً في تدسية النفس وإنحرافها، لأن المصاب بهذه الآفة يغتر بنفسه، ويستبد برأيه وينسى نعمة الله عليه، ويعمى عن عيوبه وأخطائه، ولا يستمع لنصح ناصح ولا لوعظ واعظ لأنه يدَّعي لنفسه الكمال.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٨٩.

(٢) مدارج السالكين ١/٤٠٣.

وقد حـذر ا لله سبحانه مـن هـذه الآفـة المهلكـة الـتي وقـع فيهـا اليهـود والنصارى حينما ادعوا أنهم أبنـاء ا لله وأحبـاؤه فـردَّ ا لله عليهـم قولهـم وبـين حقيقة افترائهم، فقال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل ا لله يزكـي من يشاء ولا يظلمون فتيلا انظر كيف يفترون على ا لله الكذب وكفـى بـه إثماً مبيناً**﴾(سورة النساء / الآيتان ٤٩-٥٠).

كمـا وجـه ا لله عبـاده إلى معرفـة قـدر النفـس والـتزام حدودهـا وعـدم الاغترار بأعمالها.

فقـال سـبحانه: ﴿**فـلا تزكـوا أنفسـكم هـو أعلـم بمـن اتقـى**﴾ (سورة النجم/ من الآية ٣٢).

فـالنفس إذا تغلغـل فيهـا حـب الدنيـا والتعلـق بشـهواتها أدى ذلـك إلى تشوقها للمدح والثناء وازداد إعجاب صاحبها بها ورضاه عنهـا وهـذا غـرور قاتل وآفة مهلكة.

وفي ذلك يقول الرسـول ﷺ: (ثـلاث مهلكـات: شـح مطـاع، وهـوى متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأيه)[1].

ولذلك كانت النفس الأمارة عدوة لصاحبهـا فهـي ـ كمـا قـال الإمـام

---

(١) رواه الترمذي - رقم/ ٣٠٦٠ وغيره، وانظر: سلسلة الأحـاديث الصحيحة للألبـاني - رقم/ ١٨٠٢

الآجري ـ جامعة لكل بلاء تظهر لك الزهد وهي راغبة، وتفرح بحسن ثناء من جهلها بالباطل، ويثقل عليها من ذمّها بالحق نصحاً منه[1].

وسبب ذلك شهوة حب النفس وحب الجاه وما ينتج عنهما من تطلع للظهور وكسب رضاء الناس وانتظار المدح منهم.

وفي ذلك يقول الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (ومن هذا الباب ايضاً أن يحب ذو الشرف والولاية أن يُحمد على أفعاله ويثنى عليه بها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه.. وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿**لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم**﴾(سورة آل عمران / آية ١٨٨)، فإن هذه الآية إنما أنزلت فيمن هذه صفاته)[2].

ولقد اتسعت دائرة الإصابة بمرض الغرور والرضى عن النفس، ولم يعد ذلك قاصراً على عوام الناس بل تسرب إلى قلوب بعض الدعاة وطلاب العلم، فتجد أحدهم دائم الانتقاد للآخرين وازدراء لجهودهم في الدعوة، ولا يقبل أيَّ نصح يوجَّه إليه، لأنه معجب بأقواله وأفعاله مغرور بها.

ولعل السبب في ذلك ـ كما يقول الدكتور السيد محمد نوح ـ الصدارة

---

(١) ينظر: أدب النفوس للإمام الآجري - ص / ٢٣.

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان، ص / ٣١.

للعمل الدعوي قبل النضج فإن ظروف العمل الإسلامي قد تفرض أن يتصدر بعض الدعاة للعمل قبل أني يستوي عودهم وقبل أن تكتمل شخصيتهم، وحينئذ يلقي الشيطان في قلوبهم أنهم ما تصدروا للعمل وما وضعوا في هذا الموضع إلا لما يحملون من مؤهلات وما لديهم من مواهب وإمكانات، فتنطلي عليهم هذه المكيدة الشيطانية لقلة علمهم فيصابون بالغرور والعُجب، يضاف إلى ذلك ما يرونه من مبالغة الآخرين في توقيرهم والافراط في مدحهم والثناء عليهم[1].

ولا شك أن هذا العجب يحرم الدعاة من التوفيق الإلهي الذي يرجونه لدعوتهم، ويضعف ثبات نفوسهم عند الشدائد، ويؤدي إلى نفور الآخرين منهم وبغضهم لهم .

ولو أنهم بادروا إلى معالجة آفات نفوسهم والمبادرة إلى تزكيتها لتخلصوا من هذه الأخطار، ولكن هؤلاء شغلوا بدعوة الآخرين وتهاونوا في دعوة أنفسهم.

فالحذر الحذر من أن يصاب الداعية بهذه الآفة المهلكة، فيعجب بثناء الناس عليه وإطرائهم له حتى ينسى نفسه، ويغفل عن ذكر ربه ، فيزداد غياً على غي، ويقسو قلبه حتى يُطبع عليه، وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

---

(١) ينظر: آفات على الطريق - للدكتور: السيد محمد نوح - ١٢٣/١.

ولذلك ورد النهي الشديد عن مدح الإنسان في وجهه وإطرائه بما قد يؤدي إلى الغرور والاعجاب بالنفس.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: (سمع النبي ﷺ رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدحة، فقال: لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل)[1].

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مَدَح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال: (ويحك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك، مراراً، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلاناً، وا لله حسيبه، ولا أزكي على ا لله أحداً)[2].

وفي هذا إشارة إلى هلاك الممدوح في دينه لما قد يناله من الغرور والعجب،وأما ما ورد من أحاديث أخرى تدل علىالمدح في الوجه فقد ذكر العلماء أن طريقة الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه وسوخ علمه ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة

---

(١) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب من يكره من التمادح - ٨٧/٧.
ورواه مسلم - كتاب الزهد - باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح، رقم / ٣٠٠١.

(٢) البخاري ٨٧/٧، ومسلم رقم / ٣٠٠٠.

كنشاطه للخير والازدياد منه أوالدوام عليه أو الاقتداء به كان مستحباً [1].

٤ ـ الأنانية والشح والحسد:

من أبرز نتائج الانحراف في شهوة حب النفس وحب الجاه أن يتملك الإنسان الأنانية والأثرة ويصاب بالشح والطمع فيما عند الآخرين وحسدهم على ما أنعم الله عليهم.

وقد عرف الإمام ابن رجب الحنبلي الشح فقال: (هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلّها ويمنعها حقوقها وحقيقة أن تتشوف النفس إلى ما حرَّم الله وَمَنع منه، وألا يقنع الإنسان بما أهله الله له)[2].

فليس الشح البخل بالمال فحسب بل هو حرص النفس على جلب ما تستطيع من الخير لها دون حدود ولا وازع واهتمام المرء بنفسه على حساب مصالح الآخرين وحقوقهم.

وأما الحسد فهو تمني زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت نعمة دين أو

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/١٢٦، وينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/٤٧٦-٤٧٩.

(٢) شرح حديث ما ذئبان جائعان – ص / ١٨.

دنيا[1].

قال تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾(سورة النساء / من الآية ٥٤).

وقد حذر النبي ﷺ من هذه الآفة التي تورث الشحناء والبغضاء والقطيعة.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً)[2].

٥ ـ كثرة الغضب :

الغضب انفعال غريزي يؤدي وظيفة مهمة حيث يساعد الإنسان على مواجهة الصعاب والتغلب على العقبات، ولكن أساليب التعبير عن الغضب تختلف من إنسان لآخر، وكثيراً ما يؤدي الأمر إلى طغيان في هذا الانفعال وتجاوزه للحد حتى تتعطل قدرة المرء على التفكير السليم وتصدر منه بعض

(١) رياض الصالحين ص / ٤٦٦.

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر - ٨٨/٧.
ومسلم - كتاب البر والصلة والأدب - باب تحريم التحاسد - رقم / ٢٥٥٩.

الأفعال والأقوال التي قد يندم عليها بعد ذلك[1].

وقد بين العلماء الصلة بين الغضب المذموم وشهوة حب النفس، فقال الإمام شهاب الدين البرنسي: (أصل الغضب رؤية النفس، ودواؤه النظر في مقبِّحاته فكراً ونقلاً)[2].

ولذلك لابد من المبادرة لمعالجة ثورة الغضب وكظم الغيظ والبعد عن الانتقام للنفس حتى لا تزداد كبراً وعُجباً.

وقد أثنى الله سبحانه على عباده الذين يتحكمون بأنفسهم عند الغضب، فقال تعالى: ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ (سورة آل عمران/ من الآية ١٣٤).

كما بين الرسول ﷺ أن قوة النفس ليست بالبطش وإنما هي بالتحكم بها والأخذ بزمامها، وذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[3].

---

(١) ينظر: القرآن وعلم النفس – للدكتور محمد عثمان نجاتي – ص / ٧٢.

(٢) النصيحة الكافية – للإمام شهاب الدين أحمد زرّوق – ص / ١٠٨.

(٣) البخاري – كتاب الأدب – باب الحذر من الغضب – ٧/٩٩، ومسلم – كتاب البر والصلة والأدب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، رقم / ٢٦٠٩، والصُّرَعَة هو =

ومما يدل على عظم مفسدة الغضب للنفس وما ينشأ عنه من أخطار، أن الرسول ﷺ جعل من التحذير منه الوصية التي أوصى بها أحد صحابته رضي الله عنهم وكررها عليه مراراً روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: (أوصني قال: لا تغضب، فردد مراراً، قال: لا تغضب)[1].

ومعنى قوله ﷺ: " لا تغضب " أي : اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي في الجبلّة[2].

كما أوضح الإمام ابن حجر العسقلاني خطورة الغضب وتحريكه لكوامن الأمراض النفسية فقال رحمه الله: (إن أعظمْ ما ينشأ عنه الغضب الكبر، لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى تذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب)[3].

ثم قال: (وأما في الباطن فقبحه أشد من الظاهر، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضمار السوء على اختلاف أنواعه.. وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون

الذي يصرع الناس ويغلبهم.

(١) البخاري - كتاب الأدب ٧/٩٩.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/٥٢٠.

(٣) المرجع نفسه.

الغضب.. ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: " لا تغضب " من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر احصاؤه والوقوف على نهايته)[1].

ولا شك أن هذا كله في الغضب الدنيوي المذموم أما الغضب الديني إذا انتهكت حرمة من حرمات الله فهو محمود.

يقول الإمام ابن تيمية: (طالب الرئاسة ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً، والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه)[2].

وقد أرشدت الأحاديث النبوية إلى علاج ثورة الغضب بأن يسارع العبد إلى دفعه بالاستعاذة والوضوء والأخذ بالحلم ولزوم السكينة ونحو ذلك[3].

٦ ـ الذلّ والمداهنة:

لا شك أن من يحرص على بلوغ الجاه عند أهل الدنيا، ويجعل من ذلك شغله الشاغل فإنه سيبذل لهم من دينه وكرامته لكي ينال ما يطمح إليه، ويذل

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٥٩٩-٦٠٠.

(٣) ينظر مثلاً ما أورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣/٤٤٥-٤٥٣.
وما أورده الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح ٣/١٤١٣-١٤١٦.

لهم ليكسب رضاهم.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (وكذلك طالب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم.. فهو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم)[1].

وهكذا تظهر بجلاء الأخطار العظيمة والآفات المهلكة التي تنتج من طغيان شهوتي حب النفس وحب الجاه حتى يصبح الإنسان عبداً لهواه، فيجازى بذلّ الدنيا وهوانها ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

---

(١) العبودية - للإمام ابن تيمية ص /٤٨-٤٩,٠

ثانياً: شهوة حب المال

حب المال والتملك غريزة فطرية عند الإنسان، وهو مرتبط بشهوة حب النفس لأن المال يتوصل به إلى أغراض النفس والحصول على مشتهياتها ولذلك تعلقت به كثيراً، وكلما ازدادت شهوة حب النفس ازدادت شهوة حب المال.

قال تعالى: ﴿**وتحبون المال حباً جماً**﴾ (الفجر /آية ٢٠). وقال عز وجل: ﴿**وإنه لحب الخير لشديد**﴾ (العاديات/ آية ٨).

ووصف المال هنا بأنه خير دليل على أن حب المال قد يكون فضيلة إذا جُمع من حلّه وأدى حق الله فيه وأنفق منه في وجوه الخير والطاعة وإعفاف النفس عن التذلل للآخرين والمسابقة إلى العمل الصالح.

ومصداق ذلك ما رواه الإمام أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (**نعم المال الصالح للرجل الصالح**)[1].

كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٠٢/٤، والإمام البخاري في الأدب المفرد رقم / ٢٩٩، وصححه الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء ٢٣٤/٣.

الحق، ورجل آتاه ا لله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[1].

ولكن شهوة حب المال فتنة قلَّ من يصبر عليها ويسلم من آفاتها، لأنها كثيراً ما تجاوز حدها وتطغى حتى تسيطر على قلب صاحبها.

ومصداق ذلك قوله تعالى: **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة وا لله عنده أجر عظيم فاتقوا ا لله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**(سورة التغابن/ الآيتان ١٥-١٦).

فا لله سبحانه جعل ما يمنحه لعباده من أموال فتنة لهم واختباراً لقلوبهم وأمر بتسخيرها في طاعته وبذلها في وجوه الخير ، فإن فعلوا ذلك فهو خير لأنفسهم، وإن لم يفعلوا كان شراً عليهم في الدنيا والآخرة[2].

والواقع أن شهوة حب المال مزلق خطر كثيراً ما تجرف صاحبها حتى يجاوز الحد ويبغي في الأرض ويستغرق في الطمع والجشع والتعدي على الآخرين.

قال تعالى: **﴿ولو بسط ا لله الرزق لعباده لَبَغَوْا في الأرض ولكن ينزّل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير﴾**(سورة الشورى / آية ٢٧).

---

(١) البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب اغتباط صاحب القرآن ١٠٨/٦ ومسلم - كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه - رقم ٨١٦، واللفظ له، ومعنى فسلطه على هلكته في الحق أي أنفقه في الطاعات،والحسد هنا بمعنى الغبطة.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٣٧٧/٤.

وقد تحدث الإمام الغزالي عن شهوة حب المال فقال: (إنه خير من وجـه وشرّ من وجه، وإنه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر، فإنـه ليس بخير محض ولا شر محض، بل هو سبب للأمريـن جميعـاً.. والبصـير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم)[1].

ولهذا لابد من الحذر ليسلم المسـلم مـن تسلط شـهوة حـب المـال عليـه، وتغلغلها إلى أعماق قلبه حتى تملك عليه فكرهُ، وتصبح غايـة وهدفـاً يسـتغرق كل وقته وجهده للظفر بها فيتوسع في المباحات أولاً ثم يقتحـم الشـبهات ثـم يقع في الحرام، ويتمادى فيه دون تردد بسبب طغيان هـذه الشـهوة وسـيطرتها عليه، فيمرض قلبه وتُظلم نفسه ويحل به الهـلاك، ويقـع في نتـائج سـوء عملـه، ومن أبرز هذه النتائج ما سأعرض له في الفقرة التالية إن شاء الله.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٣٤.

نتائج طغيان شهوة حب المال

١ ـ الصدُّ عن طاعة الله والوقوع في المعاصي

إذا تحول حب المال من وسيلة إلى غاية ودخل ذلك الحب إلى أعماق القلب فإنه سيضعف جذوة الإيمان ويخرج من قلب المؤمن ما كان يملؤه من حب الله ورسوله ليحل محله حب الدنيا والتعلق بها، والحرص على شهواتها وأهوائها، حتى تفتر همة المرء عن الطاعات ويتقاعس في أدائها ولا يجد في قلبه محبة لها، ثم يتناقص الإيمان بمقدار ما يزيد من تسلط شهوة حب المال حتى يترك العبد الطاعات وينغمس في المعاصي.

ومن ذلك مثلاً أنه يتهاون في الصلاة انشغالاً بجمع المال والعمل لدنياه، ويتقاعس عن أداء الزكاة ظناً منه أنها تنقص ماله ولا يبذل في أي وجه من وجوه الخير شحاً وبخلاً، ويزداد جشعه يوماً بعد يوم فيقع في الكبائر الموبقة ومنها الربا الذي حذّر الله سبحانه منه أشد التحذير، فقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأْذَنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون**﴾(سورة البقرة / الآيتان ٢٧٨-٢٧٩).

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بعدد من القصص والمشاهد التي تبين خطر طغيان شهوة حب المال وآثارها السيئة على حياة الفرد وما أنزله الله سبحانه من عقوبات رادعة لهذا الطغيان.

ومن ذلك مثلاً **قصة أصحاب الجنة** في سوة القلم . فقد أقسموا أن يحرموا الفقير حقه منها وتواعدوا أن يجنوا الثمر في الصباح الباكر حتى لا يعلم بهم الفقراء، فكانت العقوبة كا قال تعالى: **﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم﴾** أي: سوداء يابسة ولقد أيقظت هذه العقوبة الدنيوية فطرتهم وعرّفتهم بضلالهم وطغيانهم فما كان منهم إلا الحسرة والندامة: **﴿فلما رأوها قالوا إنا لضآلون بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾**(سورة القلم / الآيتان ٢٦-٢٩).

وفي ختام القصة يذكرّ الله سبحانه الغافلين عن طاعته المتعلقين بشهواتهم بأن العذاب في الآخرة أشد وأبقى من هذا العذاب الدنيوي الّذِي حلَّ بهؤلاء: **﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾** (سورة القلم / آية ٣٣).

ولا يقف طغيان شهوة حب المال عند حد ارتكاب المعاصي، بل قد يتجاوزه إلى كفر النعمة وجحودها وإنكار الدار الآخرة، وذلك عندما تستحوذ هذه الشهوة على القلب كلية فلا يبقى فيه أي موضع لذرّة من الإيمان.

- **ومثال ذلك قصة صاحب الجنتين** التي وردت في سورة الكهف، فقد طغى ذلك الرجل وأعلن كفره مفتخراً بماله متباهياً بسلطانه.

قال تعالى مخبراً عنه: **﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال: ما أظن أن**

تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدتُ إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾(سورة الكهف / الآيتان ٣٥-٣٦).

فكان النتيجة: **﴿وأُحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول: ياليتني لم أُشرك بربي أحداً﴾**

(الكهف/ آية ٤٢).

- **ومثال آخر وهو قصة قارون** الذي آتاه الله من الكنوز ما تنوء بحمل مفاتحها أقوياء الرجال فلم يشكر المنعم، وإنما جحد وتكبر وأفسد في الأرض حتى خسف الله به وبداره الأرض التي أفسد فيها: **﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون: وَيْكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا، وَيْكَأنه لا يفلح الكافرون﴾**

(القصص/ الآيتان ٨١-٨٢).

فقد ازداد بغي قارون وطغيانه ولم يبق في قلبه موضع تؤثّر فيه نصيحة الآخرين وتحذيرهم له، وقال قولة المغرور الذي حكاه القرآن عنه: **﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾** وخرج يتباهى بأمواله وزينته ليكسر قلوب الفقراء ويملأها حسرة وأسى، ولكن هذا الطغيان تهاوى في لحظات حينما هوى في باطن الأرض ضعيفاً عاجزاً، وكُشف القناع عن قلوب

المتحسرين الغافلين[1]

٢ ـ الشح والطمع:

· من الآفات المهلكة التي يصاب بها المتعلقون بشهوة حب المال الشح والبخل والحرص الشديد على ذلك المال والطمع فيما عند الآخرين، وما يتبع ذلك من ظلم وعدوان وإيذاء للناس وحسد وغلٍّ وحقد وافتراء بالباطل ونحو ذلك من الآثام.

وقد عرّف العلماء الشح بأنه: (الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حِلها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تتشوّف النفس إلى ما حرَّم الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحله الله له)[2] .

فالشح يأمر بالقطيعة والفجور والبخل والظلم والعدوان ولذلك عدَّه بعض العلماء رأس المعاصي لأنه ينافي حقيقة الإيمان[3]

وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (لا

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٥/٢٧١٠-٢٧١١٣.

(٢) شرح حديث: ماذئبان جائعان -للإمام ابن رجب الحنبلي -ص /١٨.

(٣) المرجع السابق - ص / ١٨.

يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً)[1] .

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)**[2] .

فقد أدى الشح بالأقوام السابقة إلى أن قتل بعضهم بعضاً واستحلوا ما حرّم الله عليهم، فاستحقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ولا شك أن شهوة حب المال إذا طغت فإنها لا تقف عند حد معين، فكلما تحقق لصاحبها ما يطمع فيه طلب المزيد وازداد طمعه وشحه وظلمه وعدوانه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان، ولن يملأ فاهُ إلا التراب ويتوب الله على من تاب)**.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**لو**

---

(١) رواه الإمام أحمد ٢/٢٥٦،٣٤٣،٤٤١، والنسائي ٦/١١٣، وغيرهما، وإسناده حسن كما بينه محقق رسالة " شرح حديث ماذئبان " الاستاذ بدر البدر – ص/١٩.

(٢) رواه مسلم– كتاب البر والصلة والآدب – باب تحريم الظلم –رقم /٢٥٧٨.

كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً)[1]

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن المتعلق بشهوة المال لا يزال حريصاً على جمعه وكنزه حتى يموت ويمتلىء جوفه من تراب قبره، كما أن فيه تذكيراً بضرورة التوبة من هذا الحرص المذموم[2] .

والعلاج الحاسم الذي يقطع دابر هذا المرض الفتاك هو أن يستشعر المسلم ساعة الموت وأهوال يوم القيامة ويدرك قيمة هذا المال ومبلغ انتفاعه به والأجر العظيم في إنفاقه.

وقد أرشدت آيات القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في مناسبات عدة، منها قوله تعالى: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدَّق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردّى**﴾ (سورة الليل/ الآيات ٥-١١).

كما أن هذا العلاج هو الذي أشار إليه النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿**ألهاكم التكاثر**﴾ قال: (**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من**

---

(١) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب ما يتقى من فتنة المال - ١٧٥/٧. ومسلم - كتاب الزكاة - باب كراهة الحرص على الدنيا - رقم /١٠٤٨، ١٠٤٩، واللفظ للبخاري.

(٢) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٣٩/٧.

مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت)[1].

وفي رواية: (وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[2].

وقد وصل الأمر ببعض الناس - كما يقول الإمام الغزالي - أنهم أسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في جمع المال وكنزه، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً، ظناً منهم أن السعادة في كثرة المال، فهم على هذه الحالة حتى يدركهم الموت فتبقى كنوزهم مخبوءة، قد تعبوا في جمعها وحُرموا من التمتع بها وذهبت لغيرهم دون عناء، فينال جامعها تعب الدنيا وحرمانها وحساب الآخرة وعذابها[3] .

ولا يمكن لعاقل أن يصل إلى هذا المستوى من الإضرار بنفسه لولا تغلب الشهوة والهوى وتسلط الشياطين ووساوسها.

وصدق الله سبحانه القائل: **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾** (سورة البقرة / آية ٢٦٨).

ولذلك كان علاج النفس من آفة الشح هو الذي يحقق لها السعادة والفلاح.

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد - رقم /٢٩٥٨.

(٢) مسلم - رقم /٢٩٥٩.

(٣) ينظر: إحياء علوم الدين ٣/٢٢٩.

قال تعالى: ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ (سورة التغابن/ من الآية ١٦- وسورة الحشر/ من الآية ٩).

٣ ـ الخوف والهلع:

الدافع النفسي للحرص على جمع المال والتعلق به هو تحقيق السعادة والراحة والطمأنينة كما يتوهم أهل الدنيا، ولذلك تجدهم لا يبالون بتعب الجسد لما يرجونه من راحة النفس وسعادتها، والله سبحانه جعل الجزاء من جنس العمل، ولذلك كانت عقوبة هؤلاء في الدنيا الشقاء والقلق والاضطراب والخوف والهلع، لأنهم ضلوا طريق سعادة النفس وأصروا على هذا الضلال.

وأبلغ ما يوصف به هؤلاء الذين استحكمت فيهم شهوة حب المال هو قول الله عز وجل: ﴿**إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسَّه الشر جزوعاً وإذا مسَّه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾(سورة المعارج/ الآيات ١٩-٢٥).

فقد أخبر الله سبحانه في هذه الآيات الكريمة عن حالة الإنسان البعيد عن طريق الحق، وما تتصف به نفسه من صفات الذم.

والهلع ـ كما قال الامام ابن عطية ـ (فزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند المطامع) [1] ، فإذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، وإن حصلت له نعمة بخل بها

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – للإمام ابن عطية الإندلسي ١٥/٩٧.

ومنع حق الله فيها [1].

ولو جاهد ذلك الإنسان نفسه على طاعة الله سبحانه والتزام أوامره واجتناب نواهيه لتطهرت تلك النفس من الهلع، وقنعت بما قسم الله لها من رزق، وسارعت إلى شكره تعالى راضية مطمئنة موقنة بقضاء الله وقدره، وهي تردد قوله عز وجل: **﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور﴾** (سورة الحديد / الآيتان ٢٢/٢٣).

فالله سبحانه يربي نفوس عباده على التسليم لقضائه وقدره، ليعلموا أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فلا يتحسروا على ما فاتهم، ولا يفخروا على الناس بما أنعم الله به عليهم، لأن ذلك رزق قدَّره الله لهم ومنحهم إياه، فليجعلوا فرحهم بالنعمة شكراً، وحزنهم على ذهابها صبراً [2].

والواقع أن فرح المتعلقين بحب المال فرح وهمي ظاهري، لأنه مشوب بالخوف والقلق من خسارة هذا المال أو هلاكه أو تعرضه للنقص، فهم في اضطراب دائم مهما تدفقت عليهم الأموال فلا يقر لهم قرار.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٤/٤٢١، وتفسير القرطبي ١٨/٢٨٩.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٤/٣١٤.

وقد جاء بيان هذه الحقيقة في أحاديث نبوية كثيرة، منها:

- ما رواه ابن ماجه في سننه عن زيد بن ثابت ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيَّتهُ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)[1].

- وروى البخاري عن حكيم بن حزام ﵁ قال: قال لي رسول الله ﷺ: (إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)[2].

- وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)[3].

وفي هذه الأحاديث النبوية تصوير دقيق لحالة البؤس والتعاسة والقلق التي يحياها المتعلقون بحب الدنيا وأموالها ومن طغت عندهم شهوة حب المال،

---

(١) سنن ابن ماجه. ورواته ثقات كما قال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/١٢١١.

(٢) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب هذا المال حلوة خضرة –٧/١٧٦.

(٣) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٣/٢٢٣.وكتاب الرقاق – باب ما يتقي من فتنة المال –٧/١٧٥.

حتى صاروا لا يعرفون إلا الحياة المادية، فاستعبدتهم المطامع ولعبت بهم الأهواء، فهم عبيد للدرهم والدينار والملابس التي يتفاخرون بها على الناس، ولن ينتهي جشعهم عند حد لأن الله سبحانه عاقبهم في هذه الدنيا بأن جعل خوف الفقر بين أعينهم وحرمهم من بركة الرزق الحلال.

وقوله ﷺ: (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) دعاء على من كان مِن هؤلاء بالخيبة والشقاء ومعاودة التعاسة له حتى لا يبرأ من عِلّتِهَا، وأبعد مدى لهذه التعاسة أنه إذا أصابته الشوكة لا يستطيع انتزاعها ولا يبرأ من ألمها الهيِّن، فمن باب أولى ألا يبرأ من الآلام الجسام [1]، **فهو في شقاء لا ينقطع وخوف لا يهدأ**.

ومن كانت هذه صفته استجمعت نفسه كل صفات الشر وأصبح متكالباً على الدنيا لا يشبع منها فاستحق البغض من الله سبحانه.

وهذا ما بينه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله يبغض كل جعظري جواظ، سَخّاب في الأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة**)[2].

والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبر، والجواظ: الجموع المنوع، فهو

---

(١) ينظر: من روائع البيان النبوي - للدكتور مصطفى عبد الواحد - ص/١٢٥-١٣١.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان رقم ١٩٥٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم /١٩٥-١/٣٣١.

لحرصه الشديد على جمع المـال يكثر الضجيج والخصام في الأسواق ويُهلك نفسه ويرهق جسده ليظفر بأكبر قدر ممكن من المال، فإذا عـاد إلى بيته ارتمى على فراشه كالجيفة لا حـراك لـه مـن كـثرة التعـب، وإذا أصبـح النهـار صـار كالحمار في الكدح والتحمل، كما أنه شديد الحرص على تعلم كل ما يزيد له الأرباح من أمور الدنيا وأما الآخرة فلا يفكر فيها ولا يعمل لها.

وفي تشبيه الرسول ﷺ لهذا المتكالب على الدنيا بأنه كالحمار لفتة مهمـة وهي أنه مهما عمـل وتعـب فلـن ينـال مـن تعبـه إلا مـا يمـلأ بطنـه مـن طعـام كالعلف الذي يقدم للحمار بعـد عمـل طويـل شـاق، وسـتذهب نتيجـة هـذا التعب إلى غيره بعد موته ليكون وبالاً عليه يوم القيامة.

وصدق الشاعر حين قال:

أَبُنَـيَّ إن مـن الرجـال بهيمـة   في صورة الرجل السميع المبصرِ
فَطِـنٌ بكـل مصيبة في مـالـهِ   فـإذا أصيـب بـدينـه لم يشـعرِ

ولذلك كان من أوجب الواجبات على المسلم أن يداوي ما يجده في نفسه من مرض التعلق بالمال والركون إلى الدنيـا والشـغف بهـا، وأن يعلـم أن هذا المال عَرَض زائل وعارية مستردَّة، وأن التنافس من أجله طريق الهلاك.

روى البخاري ومسلم عن عمرو بن عـوف الأنصـاري ﷺ قـال: قـال رسول الله ﷺ: (**فوا لله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشـى عليكـم أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسـطت علـى مـن كـان قبلكـم، فتنافسـوها كمـا تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**).

وفي رواية للبخاري: (وتلهيكم كما ألهتهم) [1].

وبعد هذه الإلماحة السريعة في ثنايا الموضوع لما ينبغي اتخاذه من علاج لمداواة طغيان شهوة حب المال سنعود للحديث عن العلاج بشيء من التفصيل بعد إكمال تشخيص أمراض الشهوات وبيان أخطارها، ولذلك ننتقل إلى الحديث عن شهوة البطن وما ينتج عنها من أمراض وانحرافات.



(١) رواه البخاري - كتاب الرقاق - باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها - ١٧٢/٧.ومسلم - كتاب الزهد _ رقم /٢٩٦١.واللفظ له.

ثالثاً: شهوة البطن

شهوة البطن لا يستغني عنها بشر، ولا ينفكُّ منهـا صغـير ولا كبـير، لأن حاجة الإنسان إلى الطعام والشراب أساسية لابد منها وبهـا قـوام حياتـه، ولـو حُرم منها لم تـدم لـه حيـاة، وتلـك صفـة ملازمـة لكـل إنسـان حتـى الأنبيـاء والرسل.

قال تعالى مبيناً اتصاف الرسل بما يتصف به سائر البشر من تناول الطعام: ﴿**وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين**﴾(الأنبياء/ آية ٥١).

وقال عز وجل: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنـي بما تعملون عليم**﴾(سورة المؤمنين / آية ٥١)، كما وجَّه ربنا الخطاب لعبـاده بقولـه تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مـا رزقنـاكم واشـكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**﴾(سورة البقرة / آية ١٧٢).

فالله سبحانه قد أباح لعباده الطيبات ورغبهم فيها لتكون عوناً لهم على طاعة ربهم، وتقويةً لأبدانهم على القيام بالعمل الصالح، وهذا مـا يظهـر جليـاً من سياق الآية السابقة.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: (يأمر الله تعـالى عبـاده المرسلين عليهـم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمـال، فـدلَّ

هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح)[1] .

ولذلك كان الطعام والشراب من النعم التي ينبغي للعبد أن يسارع إلى شكرها ويعرف قدرها لينال رضاء ربه سبحانه.

فقد روى مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)**[2] .

ولكن شهوة البطن كثيراً ما تسيطر على صاحبها فتتحول من وسيلة للتَّقَوِّي على الطاعة إلى هدف قائم بذاته يسعى الإنسان لنيله بكل طاقة، حتى يصبح أسيراً لهوى نفسه ووساوس شيطانه.

ولذلك حذر ربنا سبحانه من اتباع وساوس الشيطان ومكائده التي تؤدي إلى طغيان شهوة البطن وعدم الاكتفاء بالحلال، فقال تعالى: **﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** (سورة البقرة / آية ١٦٨).

كما أرشد سبحانه إلى الاعتدال في الطعام والشراب لئلا يؤدي ذلك إلى تسلط شهوة البطن وانحرافها.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٦.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب - رقم /٢٧٣٤.

قال تعالى: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (سورة الأعراف / من الآية ٣١).

فالأمارة الأولى التي تدل على تسلُّط شهوة البطن أن يُكثر صاحبها من الطعام والشراب فوق الحاجه، ويبالغ في الشبع ويفرط فيه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى أخطار هذا الإسراف وضرره على الجسد والنفس، وذلك فيما رواه الترمذي عن مقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثُلُثٌ لطعامه، وثُلُثٌ لشرابه، وثُلُثٌ لنَفَسِه) [1].

وفي هذا الحديث النبوي بيان للمنهج السوي الذي ينبغي التمسك به في الإقلال من الطعام والشراب وعدم الإسراف في شهوة البطن، لأن هذا الإسراف يؤدي إلى الشر الكبير، وليس المقصود بالشر هنا ما يتعلق بأمراض المعدة فحسب، وإنما المقصود أيضاً الشر الذي يصيب النفس حينما تعتاد الشرهَ في الطعام والشراب وشدة التعلق بهما فيتحول الطعام من وسيلة للغذاء وتقوية البدن إلى غاية وهدف يسعى صاحبه من أجله ويصبح ذلك السعي شغله الشاغل حتى تصبح همته مصروفة إليه، **فمهما شبعت بطنه لا تشبع**

---

(١) رواه الترمذي - كتاب الزهد - باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل - رقم /٢٣٨٠، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه الإمام أحمد في مسنده ١٣٢/٤، وصححه الحاكم في المستدرك ١٢١/٤، ووافقه الذهبي.

نفسه، لأن شهوة البطن أضحت عنده مقياس السعادة.

وقد تحدث الإمام الغزالي عن هذا الصنف من الناس فقال: (طائفة غلبهم الجهل والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فقالوا: المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا)[1].

ثم قال: (إنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسوا ما تُراد له هذه الأمور الثلاثة والقدر الذي يكفي منها، وانجرَّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها)[2].

فطغيان شهوة البطن لا يعني كثرة الأكل فحسب لأن كثرة الأكل عرض ظاهري لهذا المرض، وإنما حقيقة المرض في شَرَه النفس وماديّتها وتحول الطعام من وسيلة إلى غاية حتى يصبح الإنسان كالبهائم التي تسيِّرها شهواتها.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنارُ مثوىً لهم**﴾(سورة محمد/ من الآية ١٢).

وقد روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٢٨.

(٢) المرجع نفسه ٣/٢٢٩.

(الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في مَعْيٍ واحد) [1].

ومعنى هذا الحديث أن من شأن المؤمن التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة، ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما يسد الجوع ويعين على العبادة، والكافر بخلاف ذلك كله لأنه تابع لشهوة نفسه مسترسل فيها غير خائف من تبعات الحرام، وإن أكل قليلاً فليس ذلك لزهده في الدنيا وإنما لمراعاة الصحة ورياضة الجسم، فهو لشدة حرصه على الدنيا وتمسكه بها كأنه يأكل في سبعة أمعاء، كما تقول: فلان يأكل الدنيا أكلاً، وأما المؤمن فإنه يأكل في معي واحد، فالرسول ﷺ يضرب المثل في هذا الحديث للمؤمن وزهده في الدنيا وللكافر وحرصه عليها [2].

وقد ذكر الإمام النووي رحمه الله توجيهاً آخر لهذا الحديث فقال: (قيل: المراد بالسبعة سبع صفات، الحرص والشره، وطول الأمل، والطمع، وسوء الطبع، والحسد، والسمن) [3].

فالحياة ذات وجهين أو غايتين، غاية خسيسة يعيش عليها الذين يرون سعادتهم في لذة المطعم والملبس وكفى، وغاية شريفة يحيى لها الفضلاء الذين تستمتع نفوسهم بالتقوى فلا يشغلهم عن إدراكها شاغل، ولا

---

(١) رواه البخاري – كتاب الأطعمة – باب المؤمن يأكل في معي واحد –٦/٢٠٠. ومسلم – كتاب الأشربة – باب المؤمن يأكل في معي واحد – رقم /٢٠٦٠.

(٢) ينظر: فتح الباري شرح البخاري ٩/٥٣٨–٥٣٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤/٢٣.

تلتفت همتهم لأي شيء يحرمهم من بلوغ هذه المنزلة.

وقد ورد في أخبار الشعر أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر ﷺ فقال:

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فغضب الزبرقان من هذا الهجاء، وشكا الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فسأل عمر حسان بن ثابت ﷺ لبيان فحش هذا الهجاء، فأخبره حسان أن الأمر أفحش من الهجاء، وأن أقذع الهجاء لأهون من هذا، وإنه لدنس صبّه عليه لا تقوم به كرامة، فقضى عمر بحبس الشاعر [1] .

أجل، إنه هجاء شديد أن يُتهم المرء بأنه لا يهتم إلا بطعامه وكسائه، وأنه لا يصلح لمعالي الأمور، وأن همته لا تسمو إلا لتحقيق مطالب الجسد، ولا يليق به أن يتعب نفسه لتحصيل المكارم التي تَشرف بها النفوس !!.

وإذا كان الزبرقان بن بدر ﷺ قد غضب لهذا الهجاء ورفع شكايته إلى عمر ﷺ، فإن هناك الكثير اليوم ممن يعدُّ هذا الكلام مفخرة يفخر بها ويدعو لها في خِضَمِّ المادية المعاصرة التي طمست الفطرة وقلبت موازين الأمور، ولسان أحدهم يقول:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

---

(١) ينظر: تذكرة الدعاة، للبهي الخولي ص/٢٦-٢٧.

بل إن هذه الآفة النفسية الخطيرة قد تسربت إلى عبادات بعض المسلمين فتجدهم في شهر رمضان يصرفون هممهم وأوقاتهم في تذويق أنواع المأكولات وأصناف الحلويات على مائدة الأفطار لدرجة كبيرة، ويضيع أحدهم من أجل ذلك الساعات الطويلة بين التزاحم في الأسواق وكدح النساء في البيوت حتى إذا حانت لحظة الإفطارانقضّ على الطعام وأطلق لشهوة البطن العنان، حتى لا يقوى بعدها على القيام، فأين هؤلاء من حِكَم مدرسة الصيام، وآثارها في تزكية النفس وتقوية الإيمان ؟!.

وترى بعض هؤلاء يبذلون الأموال الطائلة ليملؤوا موائدهم بأصناف الأطعمة وأشكالها، فيأكلوا منها ما يمكنهم أكله ثم يُرمى الباقي مع الفضلات، ولو طُلب من أحدهم التصدق على المحتاجين أو البذل في وجه من وجوه الخير لرأيته يتردد ويشكو فقره ويتلمس لنفسه الأعذار.

كما أن هؤلاء لا همَّ لهم في مجالسهم إلا الحديث عما يرضي شهوة بطونهم من أنواع الأطعمة وأسمائها وأخبارها وأسعارها والتباهي بها.

وترجع كل هذه المظاهر المنحرفة في المجتمع إلى طغيان شهوة البطن حتى ملكت قلوب أصحابها فأفسدت عليهم دينهم.

ولذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (من مفسدات القلب الطعام، **والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات.. والثاني ما يفسده بقدره وتعدي حده كالاسراف في الحلال والشبع المفرط،** فإنه يثقله عن الطاعات، ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها حتى يظفر بها،

فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه والشبع يطرقها ويوسعها، ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنام كثيراً فخسر كثيراً)[1].

فنتائج طغيان شهوة البطن كثيرة وأخطارها جسيمة، وهي مقاربة لما سبق بيانه من نتائج طغيان الشهوات الأخرى، حيث إنها تقسي القلب وتظلمه، وتحرك دواعي الشر وتوقع صاحبها في المعاصي وتجعله مضطرباً جزعاً عند المصائب منوعاً عند الرخاء، حتى يخسر الدنيا والآخرة ولا يجني إلا الشقاء.



(١) مدارج السالكين ١/٤٥٨-٤٥٩.

رابعاً: شهوة الفرج

الشهوة الجنسية غريزة جُبلت عليها النفس البشرية، فقد جعل ا لله سبحانه هذا الميل الغريزي في كل من الرجل والمرأة لتحقيق هدف سامٍ، وهو بقاء النوع الإنساني، فلولا هذا الدافع الجنسي لما كان التناسل والتكاثر الذي عمر وجه الأرض جيلاً بعد جيل.

وقد حمى الإسلام هذه الشهوة من الانحراف بما شرعه من ضوابط وأحكام،فشرع الزواج وحض عليه ويسر سبله وأسبابه ليكون الطريق الشرعي لتصريف هذه الشهوة بما يحقق السعادة والسكن النفسي والطمأنينة لكلا الزوجين، وبما يطهر النفس من أدرانها ويحفظها من الآفات، ويرقى بها في مقامات التزكية لتبلغ درجة الإحسان، وهذا ما سبق بيانه عند الحديث عن الزواج وأثره في تزكية النفس.

ولكن الهوى المستحكم في بعض النفوس يصرف الإنسان عن طريق الحلال ليوقعه في الحرام ويزين له الباطل، فيصبح العقل أسيراً لذلك الهوى منقاداً وراءه حتى يؤدي ذلك إلى طغيان الشهوة وتدسية النفس ليكون صاحبها كالبهائم.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه ا لله: (أما مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونطق اللسان، ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت إليها،

فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية فضلاً عن درجة الملائكة.. وهم في أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها)[1] .

وقد سمى الله سبحانه الانحراف في هذه الشهوة مرضاً فقال تعالى محذراً نساء النبي ﷺ من هؤلاء المرضى: ﴿**يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولاً معروفاً، وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾(سورة الأحزاب / آية ٣٢، وجزء من آية ٣٣).

فنهى الله سبحانه نساء النبي ـ والنساء عموماً من باب أولى ـ من ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، كما أمرهن بأن يلزمن بيوتهن فلا يخرجن إلا لحاجة شرعية، فإن خرجن فليحذرن من التبرج وليلتزمن الستر والحجاب صيانة لهن من الأذى، ودرءاً لما قد يقع لمرضى القلوب من طمع بهن أو فتنة تتسرب إلى نفوسهم فتزيدها مرضاً وانحرافاً.

وبناء على ذلك يتضح أن بداية الانحراف في هذه الشهوة سببه الأساسي مرض القلب وعدم رسوخ الإيمان فيه، فإذا ما عرض له شيء من الفتنة مال إليها وتأثر بها فازداد مرضاً على مرض.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿**فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾ هو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرّضت له المرأة لم

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٤٠٠.

يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض) [1].

فالقلب الذي تَذَوَّقَ حلاوة الإيمان لا يمكنه أن ينصاع لوساوس الشيطان أو يفتن بما يعرض له من الشهوات والمغريات، لأن نور الإيمان إذا استقر في القلب طرد عنه الظلمات.

ومصداق ذلك قصة يوسف عليه السلام الذي ابتلى بفتنة امرأة العزيز حتى إنها غَلَّقت الأبواب وهيأت الأسباب، ولكنه كان كالطود الراسخ في ثباته، فقال: ﴿**معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون**﴾ (سورة يوسف /من الآية ٢٣).

وما أكثر القصص الواردة في السنة النبوية وسيرة الصحابة والسلف الصالح والتي تُظهر بجلاء كيف يردع الإيمان صاحبه عن الفحشاء، ويقوي إرادته حتى يتحكم في هواه ويتغلب على المغريات.

ومن ذلك مثلاً قصة فضالة بن عُمير الليثي الذي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما أُعلم الرسول ﷺ بما يريده فضالة عن طريق الوحي التفت إليه قائلاً: (فضالة ؟ ماذا كنت تُحدث به نفسك ؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفرِ الله، ثم وضع يده

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ٩٥.

على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِن خلقِ الله شيء أحبَّ إليَّ منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ـ أي في الجاهلية ـ فقالت: هلمَّ إلى الحديث ـ فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلمَّ إلى الحديث فقلتُ لا   يأبى عليكِ الله والإسلامُ
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلهُ   بالفتح يوم تُكسّرَ الأصنامُ
لرأيتِ دينَ الله أضحى بيِّناً   والشركُ يغشى وجهَه الإظلام[1]

وهكذا تحول فضالة من النفاق إلى الإيمان بعدما رأى المعجزة الباهرة التي كشفت نيَّته السيئة، وبعدما تيقظت فطرته للأسلوب النبوي الحكيم في معالجة هذا الجرم الخطير الذي همَّ أن يفعله، فزالت عنه ظلمة النفاق، وهو يستشعر هذه اللمسة الأبوية الحانية على صدره من يد الرسول ﷺ، **ومع تيقظ الفطرة يستقر الإيمان في القلب بعمق وثبات، ويتبدل حال صاحبه سريعاً، إذ أن عودة الشيء إلى أصله وحالته الطبيعية أمر يسيرٌ إذا تيسرت له الأسباب.**

وأول برهان قدمه فضالة على ثبات إيمانه إعراضه عن المرأة التي كانت صاحبةً له قبل إسلامه، فكان رده عليها كردِّ يوسف عليه السلام: **﴿معاذ الله﴾**.. يأبى عليكِ الله والإسلام.



---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤١٧.

نتائج طغيان شهوة الفرج

١ ـ قسوة القلب وضعف الإيمان:

كلما تمادت شهوة الفرج في الطغيان ازداد القلب قسوة وظلمة ووحشة، ابتداء من النظر إلى ما حرم الله ثم الاختلاط بين الجنسين، وما يتبعه من ترجُّل النساء وتخنث الرجال، وما ينتج عنه من تهوين أمر الفاحشة والتمهيد لها حتى يقع فيها، وعندها يتمكن المرض من القلب، وتبتعد عنه حقيقة الإيمان.

ومصداق ذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)** [١].

قال الإمام البخاري عند روايته لهذا الحديث:(أي لا يكون هذا مؤمناً تاماً ولا يكون له نور الإيمان)

---

(١) رواه البخاري - كتاب الحدود - ١٣/٨.ومسلم - كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي - رقم /٥٧.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان فوق رأسه كالظُّلَّة، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان**) [1].

فأصحاب الكبائر ينزع منهم نور الإيمان ويضعف تعظيم الرب سبحانه من قلوبهم، إذ لو استشعروا تعظيم ربهم لما تجرؤا على معصيته.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (من أتى الكبائر مثل الزنى أو السرقة أو شرب الخمر وغير ذلك، فلا بد أن يذهب ما في قلبه من تلك الخشية والخشوع والنور، وإن بقي أصل التصديق في قلبه، وهذا من الإيمان الذي يُنزع منه عند فعل الكبيرة) [2].

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (من عقوبات الذنوب أنها تُضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتُضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى.. فإن عظمة الله تعالى، وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب.. وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله وتعظيم

---

(١) رواه الترمذي - كتاب الإيمان - باب ما جاء لايزني الزاني وهو مؤمن - رقم/ ٢٦٢٥.
وأبو داود - كتاب السنة - باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه - رقم/ ٤٦٩٠
وصححه الحاكم في المستدرك ١/ ٢٢ ووافقه الذهبي.

(٢) كتاب الإيمان - لابن تيمية ص/ ٢٩.

حرماته، ويهون عليه حقه)[1] .

ثم قال: (ومن عقوبات المعاصي أنها تضعف سير القلب إلى ا لله والدار الآخرة أو تعوِّقه أوتوقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى ا لله خطوة، هذا إن لم تردّه عن وجهته إلى ورائه، **فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى ا لله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تُسيِّره، فإن زالت بالكلية انقطع عن ا لله انقطاعاً يبعد تداركه، وا لله المستعان**)[2] .

٢ـ كثرة الوقوع في المعاصي:

المعصية ولو كانت صغيرة تمهد الطريق لأختها حتى تَتَتَابَع المعاصي ويهون أمرها ولا يدرك صاحبها خطرها، فالنظرة تؤدي إلى الفكرة ثم يتولد الخاطر في القلب وتتحرك الشهوة وقد يؤدي ذلك إلى العزم على اقتراف الفاحشة، فإن تيسرت أسبابها وقع فيها، ولهذا كانت النظرة مقدمة من مقدمات الزنى، وباباً من الأبواب الموصلة إليه.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (**كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مُدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما**

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي -ص/٧٤.

(٢) المرجع نفسه -ص/٧٨.

النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)[1] .

وهكذا تتدرج المعاصي في تسربها إلى قلب العبد وتأثيرها عليه حتى لا يبالي بها ولا يقدر على مفارقتها ويطلب ماهو أكثر منها.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

(إن المعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها.. حتى تصير هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة.. ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه، وضاق صدره حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها إلا لما يجده من الألم بمفارقتها)[2] .

٣ ـ ذهاب الحياء:

إذا اعتاد العبد على مقارفة الآثام نتيجة لطغيان شهوته، سيصل إلى حال لا يبالي فيه باطلاع الناس على أفعاله القبيحة، بل إن كثيراً من هؤلاء يخبرون الناس بما يفعلون ويتباهون به، لأنهم انسلخوا

---

(١) صحيح مسلم – كتاب القدر – باب قُدّر على ابن آدم حظه من الزنا – رقم /٢٦٥٧.

(٢) الجواب الكافي ص /٥٩-٦٠.

من الحياء.

والحياء - كما قال الإمام ابن القيم - **هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه، وهو مشتق من الحياة فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقي في الآخرة**[1]

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة في بيان منزلة الحياء ومكانته، منها ما رواه الشيخان عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (**الحياء لا يأتي إلا بخير**) وفي رواية لمسلم: (**الحياء خير كله**)[2]

وهكذا نجد أن التهاون في وقاية شهوة الفرج من الانحراف ولو كان يسيراً، سيؤدي شيئاً فشيئاً إلى ما هو أخطر حتى يقع المرء فريسة طغيان الشهوة التي يصعب التخلص من شرورها، وتؤدي في النهاية إلى طمس قلب صاحبها وانسلاخه من الأخلاق الفاضلة، بالإضافة إلى ما يصيبه من الأمراض النفسية والجسدية حتى يصبح عضواً أشلّ في المجتمع لا يُرجى منه خير.

---

(١) المرجع نفسه ص / ٧٣ - ٧٤.

(٢) رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الحياء - ٧ / ١٠٠.

ومسلم - كتاب الإيمان - باب الحياء من الإيمان - رقم / ٣٧.

التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام للحماية من طغيان شهوة الفرج:

المنهج الإسلامي المحكم يغرس في النفوس الإيمان، ثم يسقيه بما ينميه ويقويه كما يبعد عنه الآفات والأخطار ويقيه من كل ما يؤدي إلى طغيان الشهوة وانحرافها، فإذا حدث شيء من هذا الطغيان فإن العلاج بأنواعه وأساليبه ودرجاته كفيل بمواجهته والحدِّ منه[1]

ولئلا يقع الانحراف تأتي التدابير الوقائية التي تحصن شهوة الفرج وتحدد لها طريقها الشرعي المأمون، وتتلخص بالأمور التالية:

١ ـ غض البصر وستر العورة:

لأن الطريق الذي تنفذ منه سهام الشهوة إلى القلب هو البصر ولذلك أمر الله عباده بغضِّ البصر عما حرَّم عليهم وستر عوراتهم عمن لا يحل لهم، فقال تعالى: **﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾**.

(١) سنتحدث عن العلاج من طغيان الشهوات في نهاية هذا الفصل إن شاء الله.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)[1]

وعن جرير ﷺ قال: (**سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري**)[2].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (قد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق شهوته)[3].

ويقول أيضاً: (**النظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرميَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار تُرمى في الحشيش اليابس، فإن لم تُحرقه كلَّه أحرقت بعضه**)، وقد قيل:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مُستصغر الشرر
كم نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها فتكَ السهام بلا قوسٍ ولا وَتَر

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الحيض - باب تحريم النظر إلى العورات - رقم /٣٣٨

(٢) صحيح مسلم - كتاب الآدب - باب نظر الفجأة - رقم /٢١٥٩.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص/١٠٩.

والمرءُ ما دام ذا عين يُقلّبها   في أعين الغيد موقوفٌ على الخطر
يَسُرُّ مقلته ما ضرَّ مهجَته   لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر[1]



(١) المرجع نفسه - ص/١١٤.

٢ ـ تحريم الاختلاط والأمر بحجاب النساء:

وقد ورد في بيان ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية عديدة، ومنها:

قوله تعالى: ﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذَيْن وكان الله غفوراً رحيماً**﴾(سورة الأحزاب / آية ٥٩).

وقوله سبحانه: ﴿**وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن**﴾(سورة الأحزاب / من الآية ٥٣).

وروى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو ؟ قال: الحمو الموت)** [1].

والحمو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج كابن الأخ والعم وابنه ونحوهم ممن ليس بمحرم وقوله ﷺ: " الحمو الموت " معناه أن الخوف منه أكثر من غيره لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه

---

(١) البخاري – كتاب النكاح – باب لاتخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم –١٥٩/٦. ومسلم – كتاب السلام – باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها – رقم /٢١٧٢.

بخلاف الأجنبي [1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم) [2] .

كما ورد التشديد والوعيد في أحاديث عديدة من تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال في اللبس والحركة لما في ذلك من إثارة الشهوات وانحرافها.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال)[3].

٣- الترغيب في الصيام لتسكين الشهوة:

إذا لم يتيسر الزواج و لم يجد المرء المقدرة عليه لسبب من الأسباب فعليه أن يقي نفسه من تسلط الشهوة وذلك بالمبادرة إلى الصيام لما فيه من تسكين الشهوة وتخفيف وطأتها، وقد ورد في الإرشاد

---

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٣/١٤.

(٢) رواه البخاري - كتاب النكاح - باب لايخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم -١٥٩/٦. ومسلم - كتاب الحج - باب سفر المرأة مع محرم - رقم /١٣٤١ - واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري - كتاب اللباس - باب المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال - ٥٥/٧.

إلى ذلك الحديث الذي رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**)[1]، أي أن الصوم يقطع الشهوة.

ويُلحق بذلك التقليل من الأغذية المحركة للشهوة لكي يكسر من حدتها ويضعف تأثيرها.

فإذا لم يحرص المرء على هذه التدابير الوقائية و لم يلتزم بها، فإن سهام الشهوة وسمومها لابد أن تنفذ إلى القلب ما دام على أهبة الاستعداد لقبول هذا الانحراف، وعندها سيتمادى في مرضه وتتمادى الشهوة في طغيانها يوماً بعد يوم حتى يقع صاحبه في حمأة الرذيلة.

ولهذا يجب على الدعاة والمربين أن يركزوا على حسم مادة هذا الطغيان والتخويف من عواقبه وتربية النفوس على العفة والفضيلة وتقوية الوازع الإيماني في قلوبهم، والتحذير من كل ما يثير الشهوات ويحرك الغرائز، وأن يسلكوا في سبيل ذلك الحكمة والمواعظة الحسنة ليزيدوا من استجابة الناس لهم وتأثيرهم بدعوتهم.

---

(١) رواه البخاري - كتاب النكاح - باب من لم يستطع الباءة ١١٧/٦، ومسلم كتاب النكاح - باب استحباب النكاح - رقم /١٤٠٠.

وخير شاهد على أهمية الرفق والحكمة في محاربة طغيان هذه الشهوة ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي أمامة ﷺ قال: (إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مه !.

فقال له: " ادنه " فدنا منه قريباً.

قال: " أتحبه لأمك ؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ".

قال: " أفتحبه لابنتك ؟ " قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لبناتهم ".

قال: " أفتحبه لأختك ؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لأخواتهم ".

قال: " أفتحبه لعمتك ؟ " قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لعماتهم "

قال: " أفتحبه لخالتك ؟" قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: " ولا الناس يحبونه لخالاتهم " .

قال: فوضع يده عليه، وقال: " اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه

"فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء)[1]

فالحكمة والرفق وإيقاظ الفطرة بتلك التساؤلات هي التي خففت من تأجج الشهوة عند ذلك الشاب وأورثته سكينة النفس ، وهذا من بدائع التربية النبوية التي ينبغي للدعاة الاقتداء بها في معالجة انحرافات المدعوين وإرشادهم إلى طاعة ربهم.



---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٥٦،٢٥٧، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٢٩، وعزاه إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

علاج طغيان الشهوات

بعد أن عرفنا خطر الأمراض التي تصيب النفس بسبب طغيان الشهوات، وما ينتج عن هذه الأمراض من نتائج سيئة تزيد النفس مرضاً على مرض، وتدسي تلك النفس حتى يُظلم القلب، نستعرض بإجمال أبرز جوانب العلاج الذي يُنجي من هذه الآفات وينقذ النفس من تلك الظلمات، ويقمع بوادر الانحراف منذ بدايته، **ويُعدُّ هذا العلاج بحق مفخرة من مفاخر المنهج الإسلامي في تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها**، ويتمثل في الأمور التالية:

أولاً: مجاهدة النفس ومحاسبتها:

سنتحدث بإذن الله تعالى في كتابٍ مستقِلٍ من هذه السلسلة عن مجاهدة النفس ، وإلزامها بطاعة الله والبعد عن معصيته، وعن محاسبة النفس ومعاتبتها ومراقبة أحوالها .

ولذلك نكتفي هنا بالتذكير بهذا الجانب المهم كأساس لابد منه في اكتشاف مرض النفس وتشخيص عللها ومعرفة موضع الداء فيها.

فالانسان إذا لم يجاهد نفسه ويحاسبها وينظر في عيوبها بتجرد ويتهمها بالخداع لا يمكنه أن يدرك حقيقة مرضها، وإذا لم يعرف المرض فكيف يتمكن من العلاج ؟

ولكي تقر النفس بعيوبها لابد من تذكيرها بضعفها وافتقارها إلى خالقها

سبحانه وإيقاظها من غفلتها بتعريفها بنعم ا لله سبحانه، وأن هذه النعم يجب شكر المنعم عليها لا جحودها، وأن اتخاذ تلك الآلاء والنعم مطية لطغيان الشهوات ينذر بالحرمان منها في الدنيا والحساب الشديد عليها في الآخرة.

وقد حفلت آيات القرآن الكريم ببيان هذه الحقائق، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿**يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى ا لله، وا لله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلقٍ جديد، وما ذلك على ا لله بعزيز**﴾(فاطر/ الآيات ١٥-١٧).

وقوله سبحانه: ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾(سورة إبراهيم/ آية ٧).

ومن رحمة ا لله بعباده أن أرشدهم إلى ما فيه صلاح أحوالهم وتحقيق سعادتهم، وحذّرهم من أخطار طغيان شهواتهم صيانة لهم من شرورها، ولا شك أن إدراك النفس لهذا الأمر يُهَوِّن على صاحبها مجاهدتها ومحاسبتها والتفتيش عن آفاتها، ويوقظ العقل ليفكر ويتدبر بعيداً عن تسلط الهوى حتى يُخضع ذلك الهوى لحكمه وسلطانه.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه ا لله: (إذا كانت الدولة للعقل سالمه الهوى، وكان من خدَمه وأتباعه، كما أن الدولة إذا كانت للهوى صار العقل أسيراً في يديه محكوماً عليه)[1].

والطريق إلى ذلك أن يصرف العبد هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين - ص/٢٤.

السلامة، فا لله سبحانه لم يحرم على عباده شيئاً إلا عوّضهم خيراً منه، فإذا أدركت النفس أن ما حرَّمه ا لله عليها خبائث مهلكة، وأن ما أباحه لها طيبات نافعة، هان عليها ترك الهوى المردي والمسارعة إلى النافع المجدي، وبذلك تنصرف الشهوة في طريقها المأمون[1].

وتأتي بعد ذلك المرحلة الثانية من العلاج وهو مراقبة النفس ومحاسبتها عن كل صغيرة وكبيرة لوقايتها من تحكم الهوى وتسلط الشهوة وبخاصة شهوة حب النفس لأن ذلك يعمي صاحبها عن عيوبها ويوقعه في العُجب والأنانية فلا يميز بين الضار والنافع إلا بما يملي عليه هواه.

وهذه المراقبة لا تقتصر على ساعة من نهار، وإنما هي يقظة دائمة لئلا يعود المرض إلى موضعه فيكون الانتكاس، ولذلك كان من دعاء الرسول ﷺ: (فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين)[2].

وأول داء يتسرب إلى نفوس الصالحين هو العُجب والغرور بالطاعة، فإذا استحكم هذا الداء فهو علامة على تسلط شهوة حب النفس، ونذير خطر بأن هذه الشهوة الخفية تمهد الطريق لتسلط الشهوات الأخرى.

ولذلك كان السلف الصالح يخافون من العُجب ويحذّرون منه، ويراقبون أحوال نفوسهم ليسدوا عليها منافذ هذه الآفة، ولهم في هذا الشأن أقوال

---

(١) ينظر: المرجع نفسه ص/٢٤-٢٥.

(٢) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في مسنده / وصححه الألباني في سلسة الأحاديث الصحيحة ص/٣٣٨٨.

وأفعال كثيرة ومجاهدات عجيبة حفلت بها كتب التراجم، ومنها مثلاً:

- قيل للربيع بن خُثيم[1] : يا أبا يزيد ألا تذم الناس ؟ فقال الربيع: (وا لله ما أنا عن نفسي براضٍ فأذم النـاس، إن النـاس خـافوا ا لله علـى ذنـوب النـاس وأمنوه على ذنوبهم)[2] .

وفي هذا تنبيه إلى من يُشغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه.

- وعن الفضيل بن عياض[3] : أنه قال: (لو قيـل لـك يـا مرائـي غضبـت وشق عليك، وعسى ما قيل لك حق، تزينت للدنيا وتصنّعت، وقصَّرت ثيابك وحسَّنت سمتك وكففت أذاك حتى يقال: أبو فـلان عـابد، مـا أحسـن سمتـه، فيكرمونك وينظرونك ويقصدونك ويُهدون إليك)[4] .

- وقد اجتمع الفضيل والثوري[5] يوماً فتذاكرا، فـرقَّ سـفيان وبكـى، ثـم

---

(١) هو: الربيع بن خيثم، أبو يزيد، زاهد من التابعين، أسند عن ابن مسـعود وغـيره، وتـوفي بالكوفة في ولاية عبد ا لله بن زياد (صفة الصفوة ٣/٥٩).

(٢) طبقات ابن سعد ٦/١٨٦.

(٣) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، شيخ الحرم المكي، ومن أكابر العباد الصـالحين، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي،ولـد في سمـر قنـد وانتقـل للكوفة ثم سكن مكة وتوفي فيها سنة ١٨٧هـ (الأعلام ٥/١٥٣) .

(٤) سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ٨/٣٢١-٤٤٢ .

(٥) هو سفيان بن سعيد الثوري، أبو عبد ا لله، أمير المومين في الحديث، كان آيـة في الحفـظ والعلم والتقوى توفي سنة ١٦١ (تنظر ترجمته في: الأعلام ٣/١٠٤) .

قال: أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة، فقال له الفضيل: لكني يا أبا عبد الله أخاف أن لا يكون أضرّ علينا منه، ألست تخلّصت إلى أحسن حديثك، وتخلّصت أنا إلى أحسن حديثي، فتزينت لي وتزينت لك ؟ فبكى سفيان وقال: أحييتني أحياك الله[1] .

- ومن دقائق ملاحظتهم لنفوسهم مراقبة ما يستقر فيها من خواطر قد تؤدي إلى العُجب وهذا ما أشار إليه الإمام السفاريني عندما أورد قول أحد الحكماء: إذا كان المرء يحدث في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإذا كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتحدث لكي يكون سكوته وحديثه بمخالفة هواه وإعجابه بنفسه، ومن كان كذلك كان جديراً بتوفيق الله إياه وتسديده في نطقه وسكوته[2] .

ثانياً - الإكثار من الباقيات الصالحات:

ويعدُّ هذا العلاج الأساس في تطبيب النفس وتطهيرها من عللها، وذلك بعد أن يشخص مرضها ويحدد نوعيته بالمحاسبة والمراقبة.

وقد أرشد ربنا سبحانه إلى ضرورة الأخذ بهذا الدواء، فقال تعالى: **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾** (سورة الكهف/ آية ٤٦).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٢٢٠.

(٢) غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب - للإمام محمد السفاريني الحنبلي - ١/٧٥.

فالمال والبنون وغيرهما من شهوات النفس لها حدها الشرعي الذي ينبغي عدم تجاوزه، والذي يحمي القلب من خطر طغيان هذه الشهوات أن يسارع صاحبه إلى الباقيات الصالحات[1]، وأن يكثر من العمل الصالح من فرائض ونوافل وبخاصة ذكر الله سبحانه، حتى يتغذى القلب ويتغلب على ما قد يتسرب إليه من مرض الشهوة، وكلما ازداد العبد من اغتنام الباقيات الصالحات إزداد الإيمان في قلبه وترسخ فيه حب الله ورسوله حتى يكون أحب إليه مما سواهما فيتغلب داعي الإيمان على دواعي الشهوات، وتزداد هذه الغلبة يوماً بعد يوم حتى يمتلئ القلب بالإيمان ولا يبقى فيه أي موضع للتعلق بالشهوات، وحينئذ تخرج تلك الشهوات إلى موضعها الطبيعي في دائرة سطح النفس فيكون الشفاء والوقاية والحصانة.

وقد سبق الحديث بالتفصيل عن آثار العمل الصالح في مجال تزكية النفس وتطهيرها من آفاتها، فالصدقة مثلاً تخفف طغيان شهوة حب المال، والصيام يمنع طغيان شهوة الفرج وتذكر الموت والبلى يعيد إلى النفس تواضعها ويحجزها عن تسلط العجب والغرور.

وإطعام المسكين وملاطفة اليتيم وخفض الجناح والتواضع والإحسان للآخرين يوقظ النفس من غفلتها ويطرد عنها الأنانية والحسد والشح، ولذلك

---

(١) ذكر المفسرون في معنى الباقيات الصالحات أقوالاً، وقد أوردها الإمام ابن كثير في تفسيره ٣/٨٥-٨٧. ومحصل هذه الأقوال أنها تشمل جميع أعمال الحسنات التي تبقى لأهلها في الجنة.

وصف النبي ﷺ هذا العلاج لمن جاءه يشكو قسوة قلبه.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له: (أطعم المسكين وامسح رأس اليتيم)[1].

وهكذا كل عمل صالح يقوم به العبد ابتغاء مرضاة ربه فإنه من الباقيات الصالحات التي تغذي القلب وتنوِّره.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: (إذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبةً لله وخوفاً منه وتركَ المعصية حباً له وخوفاً منه قويَ حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره)[2].

ثم يذكر لنا نماذج من الباقيات الصالحات التي تزيد الإيمان وتقمع تسلط الشهوات، فيقول: (وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه ويكتب الإيمان في قلبه.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ٢/٢٦٣، وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٤٩، وقال: رجاله الصحيح، وصححه الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٦٣.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/١٣٦.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنةً وظاهرة، فإنها عمود الدين.. ولا يسأم من الدعاء والطلب فإن العبد يُستجاب له ما لم يعجل)[1].

فالتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات، والتوجه إليه سبحانه بأخلص الدعوات يعين العبد على مقارعة جيوش الشهوات وطرد الغفلات.

ثالثاً: العقوبات التأديبية:

العلاجان السابقان يتعلقان بالشخص الذي عرف مرض نفسه وأدرك ما ألمَّ بها من تسلط الشهوات فبادر إلى تعاطي الدواء واتخاذ أسباب الشفاء.

ولكن بعض المرضى لا ينتبهون لمرضهم، بل قد يظن أحدهم أنَّ ما هو متلبس فيه من انحراف هو الحق والصواب بسبب إظلام قلبه وإنغماسه في شهواته.

وهنا لابد من علاج تربوي مركز يعتمد على النصح والتذكير والترغيب والترهيب والوعظ والإرشاد بمختلف الوسائل والساليب النافعة، وهذه هي مهمة الدعاة والمربين والعلماء والمسؤولين كلٌّ بحسب مسؤوليته ابتداء من الأبوين في الأسرة وحتى ولاة الأمور والحكام.

ولا شك أن هذه المواعظ الصادقة لها تأثيرها الكبير في تقويم انحراف النفوس، وبخاصة عندما تكوِّن موقفاً اجتماعياً ينظر إلىأهل الانحراف على أنهم

---

(١) المرجع نفسه ١٠/١٣٦-١٣٧.

مرضى لابد لهم من علاج.

فإذا وصل الأمر ببعض النفوس إلى أنها لم تؤثر فيها المواعظ و لم تردعها الزواجر، لأنها مأسورة بقيود الشهوات، فلا بد من تحطيم تلك القيود ولو أدى ذلك إلى آلام وجراح، إذ سرعان ما تذهب تلك الآلام عندما تستشعر النفس حريتها و كرامتها، ويتمثل ذلك في العقوبات التأديبية التي هي أدوية نافعة يُصلح ا لله بها مرض القلوب وتتفاوت درجات هذه العقوبات بحسب مستويات الناس والأمراض التي ألمت بهم، فمن الناس من تكفيه الإشارة فيرتجف قلبه ويهتز وجدانه، ويعدل عما هو مُقدم عليه من إنحراف، ومنهم من لا يردعه إلا الغضب الشديد، ومنهم من يكفيه التهديد بعذاب مؤجل التنفيذ، ومنهم من لا بد من تقريب العصا منه حتى يكف عن انحرافه، ومنهم من لا يستقيم إلا إذا أحسَّ لذع العقوبة على جسمه [1] .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه ا لله: (المذنب لا يزال يؤذى ويُنهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له في الكلام إلى أن يتوب ويطيع ا لله، وأدنى ذلك هجره فلا يُكلم بالكلام الطيب.. وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجراً له داعياً إلى حصول المقصود وهو توبته وصلاحه) [2] .

والسبب في إصرار بعض النفوس على التعلق بالشهوات المضلة رغم النصح والزجر أنها أحبتها وشغفت بها حتى أعماها ذلك

---

(١) ينظر: منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب -١/١٩٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١١٥/٣٠٠-٣٠١.

عن إدراك خطرها وضررها.

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية:

(لا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب، فإن الشهوة توجب السُكر، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ (سورة الحجر/ من الآية ٧٢).. والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه، فيزداد سقمه فيهلك)[1] .

ثم يقول رحمه الله: (وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم.. فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه)[2] .

فالعقوبات الشرعية بجميع أنواعها حياة للفرد والمجتمع ونجاة لهما من الشرور حتى لو كان ظاهرها القتل قصاصاً فإنها سبيل للحياة.

ومصداق ذلك قوله عز وجل: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾(سورة البقرة / آية ١٧٩)، والحياة في القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن أنه يدفع حياته ثمناً لجريمته

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٢٨٨-٢٨٩.

(٢) المرجع نفسه ١٥/٢٩٠.

جدير به أن يفكر ويتردد، كما أن فيه حياة للمجتمع بأسره بسلامته من الجرائم، وشفاء لصدور أولياء الدم من الرغبة في الثأر عند وقوع القتل بالفعل[1].

والمنهج الإسلامي في تربية النفوس يستخدم مختلف وسائل التربية الممكنة حتى تستجيب النفس وترعوي عن غيها، فإذا ما استدعى الأمر التخويف بالعقوبة أو تنفيذها لتكون علاجاً لانحراف النفس فإن ذلك هو الحكمة التي شرعها أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (إنَّ مَن شرع هذه العقوبات ورتبها على أسبابها جنساً وقدراً هو عالم الغيب والشهادة، وأحكم الحاكمين وأعلم العالمين، ومن أحاط بكل شيء علماً.. وأحاط علمه بوجوه المصالح دقيقها وجليلها وخفيها وظاهرها.. فشمل إتقانه وإحكامه لكل ما شمله خلقه)[2].

وقد أرشد النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، إلى ضرورة ردع مرضى الشهوات والأخذ على أيدي المفسدين لتحقيق الحياة الكريمة للفرد والمجتمع، ومن ذلك مثلاً:

ما رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على**

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ١/١٦٥.

(٢) اعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/١٠١.

سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نُؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)(١) .

وفي هذا المثال النبوي البديع تصوير دقيق لما سيحلُّ بالمجتمع من هلاك ودمار إذا تُرك أصحاب الشهوات والأهواء يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يُمنعوا، وأن هذا المنع والأخذ على أيديهم هو الرحمة والشفقة، ولو لم يدرك ذلك أهل الفساد الذين زاغت عقولهم بسبب تسلط شهواتهم فأصبحوا يسعون إلى ما فيه هلاكهم وهلاك غيرهم.

فالعقوبة علاج حاسم قد لا يفلح غيره لزجر النفس الأمارة بالسوء في بعض الأحيان، وهي السبيل الأقوم لحماية الإنسان من شر نفسه التي انحازت إلى صف أعدائه، والطبيب الحاذق هو الذي يسارع إلى بتر العضو عندما يستشري فيه الداء لئلا يعم إلى غيره من الأعضاء، ولو نظرنا إلى ما خلفته بعض الإتجاهات الحديثة في التربية، عندما استبعدت أسلوب العقوبة لوجدناها قد أخرجت جيلاً منحلاً متهالكاً وراء شهواته قد تأصلت فيه الجريمة والانحراف.



---

(١) صحيح البخاري - كتاب الشركة - باب هل يقرع في القسمة ٣ / ١١١، وكتاب الشهادات - باب القرعة في المشكلات - ٣ / ١٦٤.

الفصل الثاني

معوقات تزكية النفس

الفرق بين الأمراض والمعوقات أن الأمراض تأتي من داخل النفس، وأما المعوقات فهي أمور خارجية تؤثر في النفس وتعيق تزكيتها مستغلة نقاط الضعف فيها.

وتنقسم تلك المعوقات إلى قسمين بحسب مصدرها، فهي إمّا ناتجة عن وساوس الشياطين، وإمّا من المؤثرات السيئة في البيئة التي يعيش فيها الإنسان وما تمليه عليه من انحرافات، وبهذا ينقسم الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: **تأثير الشيطان.**

المبحث الثاني: **تأثير الأسرة والمجتمع.**

المبحث الأول

تأثير الشيطان

الشيطان لغة كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والدواب، وهو مشتق من شطن، أي: تباعد أو من شاط، أي: احترق غضباً[1]، واشتاط الرجل إذا احتد غيظاً.

وسمي الشيطان بذلك لبعده عن الصلاح والخير وتمرده، والمقصود هنا شيطان الجن وهو إبليس اللعين وذريته وأعوانه، وسمي بذلك لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس منها[2].

وقصة عداوة ابليس لبني آدم تحدث عنها القرآن الكريم في أكثر من موضع، وقد ابتدأت من عداوته لآدم عليه السلام حينما رفض ابليس تنفيذ أمر الله سبحانه بالسجود لهذا المخلوق الذي كرّمه الله تعالى وجعله خليفة في الأرض، فانبجس الحقد والكبر من أغوار نفسه واعترض على أمر ربه: ﴿**قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾(الأعراف/ من الآية ١٢).

فاستحق الطرد واللعنة، كما قال تعالى: ﴿**قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين**﴾ (سورة الحجر/ الآيتان ٣٤-٣٥).

---

(١) ينظر: مختار الصحاح ص/٣٣٨، بصائر ذوي التمييز ٣/٣١٩-٣٢٠.

(٢) ينظر: مختار الصحاح ص/٦٣.

وازداد عـدو الله حقـداً وعتـواً، وأعلـن عـن خطتـه في إضـلال بـني آدم وإفسادهم إلا من عصمه الله تعـالى: **﴿قـال رب بمـا أغويتـني لأزينـنَّ لهـم في الأرض ولأُغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾** (الحجر/ الآيتان ٣٩/٤٠).

وقـد شـاءت حكمـة الله سـبحانه أن يهبـط آدم وزوجتـه إلى الأرض وتعيش ذريته فيها، وأن يُمكَّـن ابليـس وجنـوده مـن التأثـير في بعـض النفـوس ليكون ذلك ابتلاء واختباراً للإنسان.

ولكي يثبت الإنسان في هذا الابتلاء ويكون على بصـيرة مـن أمـره فقـد زوَّده الله سبحانه بالعقل والإرادة وأرشده إلى طريق صلاحه وحذَّره من مكـر الشيطان وفتنته ووساوسه، وقد ورد بيان ذلك في آيـات قرآنيـة كثـيرة، منهـا قوله تعالى: **﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنـة﴾** (سورة الأعراف من الآية ٢٧).

وقوله سبحانه: **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبـه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**(سورة فاطر / آية ٦).

وقوله عز وجل: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبـدوا الشـيطان إنـه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضـلَّ منكـم جِبِّـلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾** (سورة يس/ الآيات ٦٠-٦٢).

فسمّى الله سـبحانه طاعـة الشـيطان عبـادة لـه لأنهـا انقيـاد وخضـوع لوساوسه واستجابة لإيحاءاته ونزغاته وتصديق لأمانيه الكاذبـة، مـع أنـه عـدو

ينبغي الحذر منه والتحرس من شروره، وقد أضل خلقاً كثيراً، أفلا يكون في ذلك عبرة لأصحاب العقول السليمة ؟

والأصل في العاقل أن يبتعد عن شرور أعدائه، لا أن يُسلم زمام أمره لهم حتى يسخّروه في إهلاك نفسه بإرادته وهو يرى جيوش الهالكين من قبله !

إذن كيف تنطلي حِيَلُ الشيطان على الإنسان حتى يُوقِعَهُ في طريق الغواية ؟ هذا ما سنجمل الحديث عنه في الفقرة التالية:

أسباب تمكن الشيطان من إفساد النفوس:

خلق الله الإنسان على الفطرة السوية التي تتجه إلى توحيده سبحانه ولكن عداوة الشيطان ومكائده كثيراً ما تصرف هذه الفطرة عن توجهها، وتحرفها إلى طريق الضلال.

ومصداق ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن عياض المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا.. إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزّل به سلطاناً**) [(١)] . .

---

(١) رواه مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها - باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم / ٢٨٦٥.

وفي هذا الحديث تصوير لطبيعة المعركة بين الشيطان والإنسان،ولا بد لكل معركة من أسلحة وجنود وأعوان يتقوى بهم كل فريق، ولذلك يستخدم فيها الشيطان أنواعاً كثيرة من الأسلحة وأصنافاً شتى من الجنود والأعوان.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين المَلَك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب، وابتلى العبدَ بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمدَّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً ودُوَلاً بين الفريقين إلى أن يستولي أحدهما على الآخر، ويكون الآخر مقهوراً معه)[1].

وقد كشف الله سبحانه لعباده عن أساليب الشيطان في الغواية وأسلحته وجنوده الذين يستعين بهم في إضلال الناس، ومن أبرز هذه الأسلحة والوسائل:

١ ـ استغلاله لأهواء النفس وأمراض القلب:

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿**ليجعلَ ما يلقي الشيطانُ فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهم**﴾ (سورة الحج/ من الآية ٥٣).

ويقول سبحانه: ﴿**ولكن قست قلوبُهم وزَيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون**﴾ (سورة الأنعام/ من الآية ٤٣).

(١) الفوائد لابن القيم ـ ص/٦٠.

فالقلوب المريضة التي تحكمت فيها الشهوات والأهواء سرعان ما تتأثر بوساوس الشيطان وتستجيب لفتنته فتزداد مرضاً على مرض، وأما القلوب السليمة فإنها تتحصن من شروره

وعندما تستجيب النفس الأمارة لداعي الشيطان، ويستغل الشيطان هوى النفس ليبثَّ وساوسه، وتخون النفس صاحبها لتصبح في صفِّ ألدِّ أعدائه، فهذا هو الخطر المحدق المهدد بالهلاك،

يقول الإمام ابن تيميه رحمه الله : (الهوى وحده لا يستقل بفعل السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعاً إن ذلك يضره ضرراً راجحاً انصرفت نفسه عنه بالطبع.. ولهذا كان البلاء العظيم من الشيطان لا من مجرد النفس، فإن الشيطان يزين لها السيئات ويأمرها بها ويذكر لها ما فيها من المحاسن)[1] .

أي أنه يَنفُذ إلى النفوس من خلال ما تشتهي وما تراه حسناً، فكلما اتسعت دائرة تلك المشتهيات ازدادت مداخل الشيطان إلى النفس، فإذا طغت الشهوات فقد وثّق الشيطان صلته بذلك الإنسان وجعله عبداً لوساوسه يحركه كيف يشاء، ووقع الإنسان بين خطري العدو الداخلي والعدو الخارجي اللذين توثقت بينهما الروابط.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤/٢٨٩-٢٩٠.

٢ ـ التزيين والخداع:

التزيين يحوِّل الشيء عن صورته الحقيقية السيئة إلى صورة براقة جذابة، كمن يغطي حفرة مليئة بالقاذورات بشيء من الأزهار والورود حتى إذا وقف المخدوع فوقها ليستمتع بمنظرها هوى في أعماق سحيقة.

وقد أشار الله سبحانه إلى هذه الخدعة الشيطانية ليحذرها العباد ويتبصروا بعواقبها، وذلك في قوله تعالى مخبراً عن خطة ابليس الماكرة:

﴿قال رب بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغوينهم أجمعين﴾

(الحجر/ آية ٣٩).

فالتزيين هو الذي يزيِّف به الشيطان حقائق الأشياء، فيغطي وجهها القبيح ويضخم ما فيها من محاسن موهومة حتى يقع المرء في شباكه ويصغي لوساوسه.

وهذا ما فعله في وسوسته لآدم عليه السلام وزوجته، كما قال تعالى: **﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سَوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكَيْنِ أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾** (الأعراف/ الآيتان ٢٠-٢١).

فلقد زيّن لهما المعصية بمكره وخديعته، وأقسم بالله كذباً ليؤكد خداعه وأنه ناصح أمين يدل على الخير، وما كان آدم عليه السلام يظن أن أحداً يحلف بالله كذباً فاغتر به.

وهكذا يستهوي الشيطان بني آدم بالأماني الكاذبة والحيل الماكرة، وفي ذلك يقول الله سبحانه مخبراً عن هذا الكيد الشيطاني: ﴿**يعدهم ويُمَنِّيهِم وما يَعِدُهُمُ الشيطان إلا غروراً**﴾ (سورة النساء/ آية ١٢٠).

ومن أعرض عن طاعة ربه وأصغى لوساوس الشيطان فإنه يعاقب في الدنيا بأن يزداد تسلط الشياطين عليه وتزيينهم لأعماله الماضية والمستقبلة، حتى يرى الباطل حقاً لأن قلبه منكوس ومظلم، قال تعالى: ﴿**وقيضنا لهم قرناءَ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾ (سورة فصّلت / من الآية ٢٥).

٣ ـ التدرج في الإغواء:

لو أن الشيطان القى بوساوسه دفعة واحدة ليضلَّ بني آدم لما استجاب له إلا القليل لأن خداعه ينكشف، ولا يمكن للمسلم أن يتخلى عن دينه ويترك الفرائض ويقع في المنكرات بعد أن كان متمسكاً بطاعة ربه إلا إذا كان ذلك بالتدريج، فينتقل من منكر إلى منكر أكبر منه حتى ينسلخ عن الدين كلياً.

والشيطان يتقن حيلة التدرج والالتفاف في إغواء العباد، وهي الحيلة التي يصطاد بها كثيراً من الناس وهم لا يشعرون ولا يظهر منهم معارضة له، لأنه إن رأى أحد مداخله إلى النفس مُوصَداً تسرَّب من مدخل آخر، حتى لا يدع جهة أو طريقاً يصد بها العبد عن طاعة ربه إلا سلكها.

وقد أخبر الله سبحانه عن هذا الكيد الشيطاني فقال تعالى:

﴿**قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيم ثم لآتينهم من بين**

أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (سورة الأعراف/ الآيتان ١٦-١٧).

وقد استخدم ابليس وسيلة التدرج في الخداع مع آدم عليه السلام، وهذا ما ألمحت إليه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: **﴿فدلاَّهما بغرور﴾** (الأعراف/ من الآية ٢٢).

فكلمة **﴿دلاّهما﴾** تشير إلى التدرج كما يدلي الرجل الدلو في البئر، يقال: أدلى دَلْوه، أي أرسلها، وهذا التدرج إما أن يبدأ من الصغائر حتى يوقع العبد في الكبائر، وإما أن يبدأ من الكبائر، فإن يئس منها تدرج إلى ما هو أدنى، حتى يصل إلى منفذ تميل إليه النفس فيدخل منه ثم ينتقل إلى غيره حتى يصل إلى مراده[(١)].

وقد فصَّل الإمام ابن القيم رحمه الله في الحديث عن هذا المكر الشيطاني الذي قلّما يسلم منه بشر، فبين أن الشيطان يقف للإنسان في سبع عقبات: أولها عقبة الكفر، فإن نجا منه العبد وقف له في عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم من هذه العقبات وقف له في عقبة الإكثار من المباحات حتى تشغله عن الطاعات، فإن غلبه المؤمن بإيمانه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة السابعة التي لا يسلم منها مؤمن، إذ لو نجا منها أحد لنجا

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي ٥٢/١٣، وتفسير ابن عطيه ٤٦٠/٥، والقرطبي ١٨٠/٧.

منها رسل الله وأنبياؤه، وهي تسليط حزبه وجنوده من الأعداء الفجرة على المؤمن بأنواع الأذى، وهذه العقبة لا حيلة للعبد في التخلص منها، وما عليه إلا أن يراغم أعداءه، فمن تعبَّدَ الله بمراغمة عدوه فهو من أهل الاستقامة[1].

شبهات خطيرة يلقيها الشيطان في النفس:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[2].

وفي هذا الحديث كشف لخداع شيطاني يسلكه الشيطان مع المؤمنين، وبخاصة أولئك الذين يئس من إغوائهم، فينكد عليهم بالوسوسة الخفية التي توقعهم في الشكوك، وعلاج ذلك أن يدفع المؤمن هذه الوساوس ويقطع دابرها بالالتجاء إلى الله تعالى والاعتصام به والاستعاذة من شر الشيطان، وأن لا يسترسل معها، **لأن الشيطان لا يُدفع بالحجة والإقناع فكلما أُلزم حجة زاغ إلى غيرها حتى يُفضي بالمرء إلى الحيرة**، بخلاف ما لو تعرض أحد من

(١) ينظر: مدارج السالكين للإمام ابن القيم ١/٢٢٢-٢٢٧، وكتاب: مصائب الإنسان من مكائد الشيطان للإمام تقي الدين إبراهيم بن مفلح المقدسي - ص/٨٢.

(٢) رواه البخاري - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده - ٤/ ٩٠ ، ومسلم - كتاب الإيمان - باب الوسوسة في الإيمان - رقم /١٣٥.

البشر لهذه الشبه فإنه يمكن رده بالحجة والبرهان[1] .

وإذا وردت هذه الخواطر الشيطانية إلى نفس المؤمن فاشتد خوفه منها واستعظم أمرها فهذا دلالة على يقظة الإيمان في قلبه وعدم مقدرة الشيطان أن يتسلط عليه.

ومصداق ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: (جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه ؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان)[2] .

أي أن استعظامكم لهذه الوسوسة وخوفكم من النطق بها هو صريح الإيمان، لأن هذا دلالة على ثبات الإيمان في القلب وانتفاء الشك والريبة عنه[3] .

وهكذا يظهر أن الخواطر مدخل كبير من مداخل الشيطان إلى القلب، فمن وفقه الله للتمييز بين خواطر الخير المحمودة وخواطر الشر المذمومة التي توسوس بها الشياطين فهذه علامة استنارة القلب بنور الإيمان.

---

(١) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٣٤١.

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان ـ باب الوسوسة في الإيمان.. رقم /١٣٢.

(٣) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢/١٥٤.

نماذج للحيل النفسية التي تزينها وساوس الشيطان:

ما أكثر الحيل النفسية التي تثبط المسلم عن المبادرة إلى العمل الصالح والعناية بتزكية نفسه، وما كان لهذه الحيل أن تبلغ مداها لولا تزيين الشيطان ووساوسه التي يدخل منها إلى النفس ليحول بينها وبين طريق الخير.

وكلما ازداد تزيين الشيطان وخداعه ازدادت الحيلة النفسية عمقاً وخفاء، وبخاصة إذا كان المدخل إليها باباً من أبواب الخير، **فكثيراً ما يفتح الشيطان على العبد باباً للخير ليصرفه عن خير أكبر منه، أو ليوصله إلى طريق خفي من طريق الشر يتدرج بعده إلى ما هو أكبر منه** [(١)].

وقد فصّل الإمام ابن الجوزي رحمه الله في بيان هذه المداخل الخفية للشيطان، وذلك في كتابه (تلبيس إبليس)، حيث كشف فيه خبايا المكائد الشيطانية التي يلبِّس بها على مختلف أصناف الناس، ومنها تلبيسه على العلماء والولاة والعباد والصوفية وغيرهم من عوامّ الناس، ثم ختم بالحديث عن تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل قائلاً:

(كم من عازمٍ على الجد سوَّفه، وكم من ساعٍ إلى فضيلة ثبَّطه، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال استرح ساعة، أو انتبه العابد في الليل ليصلي فقال عليك وقت، ولا يزال يحبِّب الكسل ويسوِّف العمل، ويُسند الأمر إلى طول الأمل، فينبغي للحازم أن يتدارك الوقت ويترك التسويف ويعرض عن

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس للإمام ابن الجوزي - ص/٣٨.

الأمل الذي هو سبب كل تقصير في خير أو ميلٍ إلى شر.. ومن انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوّه لا يفتر عنه، فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة وأقام له كميناً)[1].

ولنستعرض نماذج من الحيل النفسية التي تسهّل دخول الدسائس الشيطانية إلى النفس حتى تصدها عن طريق التزكية، ومن أبرزها[2].

١ ـ العائق الوحيد:

هذه حيلة نفسية شيطانية تقف في وجه العبد كلما عزم على سلوك طريق التزكية بجدٍ وهمة، فيحول الشيطان بينه وبين هذه الهمة بوضع عائق يصوره له أنه العائق الوحيد، فإن زال هذا العائق فافعل بعده ما تريد.

فمثلاً يصوِّر للزارع أن العائق الوحيد حراثة الأرض أو قطف الثمر، ويصوِّر للطالب أن العائق الوحيد الاختبار المقبل أو الحصول على الشهادة، ويصوِّر للتاجر أن العائق الوحيد الصفقة التجارية، أو الجرد السنوي.. وهكذا **حتى يطمئن كلٌّ من هؤلاء إلى وضعه منتظراً زوال المانع المزعوم، ويرضى بتقصيره وبُعده عن ربه بحجة هذا العائق الموهوم، وكلما زال العائق جاء الشيطان بعائق آخر، ليستمر التخدير بالأماني التي لا نهاية لها.**

---

(١) المرجع نفسه ص/٤٠٤ـ٤٠٥ بتصرف.

(٢) مقتبس من رسالة (الحيل النفسية) تأليف: نهاد درويش، ضمن سلسلة: دراسات في واقعنا

وقـد أخـبر الله سـبحانه عـن هـذا المكـر الشـيطاني فقـال تعـالى: ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً**﴾ (سورة النساء / آية ١٢٠).

٢ـ الكمال الزائف:

معظـم المسـلمين يدركـون خطـر الشـيطان وعداوتـه لبـني آدم وضـرورة التحذير مـن شـروره لكـن الواقـع أن بعضهـم يصـابون بحيلـة نفسـية ومدخـل شيطاني يجعلهم يشعرون بالطمأنينة لما هم عليه، وأن ما يفعلونه هـو الصـواب دائماً، وأن الشيطان بعيد عنهم مهما كان قريباً من غيرهم، ومـن خـلال هـذه الحيلة يعمى الإنسان عن عيوب نفسه ويُحرم من إصلاح أخطائـه والاستفادة من نصح الآخرين.

وقد أشـار الإمـام الشـوكاني لخطـر هـذا الكيـد الشـيطاني وذلـك عنـد تفسيره لقوله تعالى: ﴿**والذين إذا فعلـوا فاحشـة أو ظلمـوا أنفسـهم ذكـروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلاَّ الله ولم يصرُّوا على ما فعلـوا وهم يعلمون**﴾ (سورة آل عمران/ آية ١٣٥) ، فذكر أنه لما نزلت هذه الآيـة صـاح إبليس بجنوده وحثا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءتـه جنـوده من كل بر وبحر، فقال لهم: نزلت آية في كتاب الله لا يضر بعدهـا أحـداً مـن بني آدم ذنب، فقالوا: وما هي ؟ فأخبرهم، قالوا: **نفتح لهم باب الأهـواء فـلا**

= المعاصر.

يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون إلا أنهم على الحق[1] !!.

ولذلك حذّر الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة من هذه الحيلة الشيطانية مبيناً ضرورة حذر العبد من دسائس الشيطان مهما بلغ صلاحه وتقواه، **ومن هذه الأحاديث:**

ما رواه الشيخان عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)**[2] .

وفي ذلك إشارة إلى كثرة وساوس الشيطان وسهولة دخولها إلى القلب وخفائها عن الأنظار.

وروى مسلم عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)**[3] .

---

(١) فتح القدير للشوكاني - ٣٨٢/١.

(٢) رواه البخاري - كتاب الاعتكاف - باب هل يخرج المعتكف لحوائجه - ٢٤٣/٤، ورواه مسلم - كتاب السلام - باب دفع ظن السوء - رقم /٢١٧٤، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس — رقم /٢٨١٤، وقد ذكر الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث أن كلمة (فأسلم) وردت بضم الميم، وفتحها، فهي بالضم بمعنى أسلمُ من شره وفتنته، وبالفتح بمعنى أنه

٣ ـ تضخيم جانب على حساب جانب آخر:

وهذه أيضاً حيلة شيطانية ماكرة قلَّ من يتبصر لها، وبهذه الحيلة يحاربنا الشيطان بالسلاح الذي ينبغي أن نحاربه به، وذلك حينما يلمس من العبد ميلاً إلى جانب معين من جوانب الحياة فيضخم في تصوره أهمية هذا الجانب ويصرف جميع إمكاناته لتحقيقه على حساب جوانب أخرى لا يبقى لها أي أثر في حياته مهما كانت مهمة.

وأمثلة ذلك كثيرة في حياة المسلمين، فهذا يبالغ في الزهد حتى ينقطع عن الحياة ويضيع حقوق أهله وتربية أولاده والسعي في طلب الرزق، وذاك لا يرى الإسلام إلاّ من خلال نظام الحكم حتى يصل به الأمر إلى الغلو وترك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وآخر يتمسك بما ورد من نصوص في فضل السعي على العيال وطلب الرزق الحلال فينغمس في أعمال الدنيا ويستغرق أوقاته في طلب الأموال حتى ينسى آخرته ويضيع نفسه وهو يظن أنه يحسن صنعاً.

وإذا سئل أحد من هؤلاء عما هو فيه سوَّغ حالته بدليل شرعي، وجعل ما لديه من غلوٍّ هو الصواب وغيره سراب، وهكذا ينجو من مزلق ليقع في مزلق آخر بهذه الحيلة الشيطانية التسويفية، وهي حيلة تضخيم جانب لتسويغ غلوه الذي وقع فيه.

= صار مسلماً أو أنه استسلم وانقاد.

وهذا ما حذر منه الرسول ﷺ أشد التحذير، وذلك فيما رواه مسلم عن ابن مسعود قال: (هلك المتنطعون.. قالها ثلاثاً)[1].

والمتنطعون هم المتشددون في غير موضع التشدد والغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

العلاج من مداخل الشيطان:

مهما اشتدت مكائد الشيطان فهو لا يعدو أنه مخلوق ضعيف باستطاعته أن يوسوس في صدور الناس بالشر ويزين لهم المنكرات، ثم إن الإنسان هو الذي يرتكب الخطيئة بإرادته الحرة ويعتبر مسؤولاً عنها، وليس للشيطان سلطان على إرادة الإنسان إلا من سلَّم قيادة نفسه له، وصدق الله سبحانه إذ يقول: ﴿**إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانُه على الذين يتولونَه والذين هم به مشركون**﴾ (النحل/ الآيتان ٩٩-١٠٠).

فالطريق الذي ينفذ منه الشيطان إلى القلب هو الوسوسة بخفاء، فإذا حَسَم الإنسان مادتها فقد سلم من تسلطها.

ولذلك يقول المولى سبحانه مبيناً ضعف الشيطان أمام قوة المؤمن: ﴿**إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ (سورة النساء/ من الآية ٧٦) .

(ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٧/١٧).

(١) رواه مسلم - كتاب العلم - باب النهى عن اتباع متشابه القرآن - رقم / ٢٦٧٠.

وهذه الوساوس الشيطانية تدخل إلى النفس الغافلة **من طريق تجهله أو طريق تأمنه أو طريق تحبه**، ولذلك لابد للإنسان من مجاهدة نفسه ومحاسبتها ليكون على دراية بمواطن الضعف والقوة فيها، فيسد مداخل الشيطان في النفس، ويبادر إلى تزكيتها بمختلف الأساليب العملية في التزكية حتى ترقى وتسمو وتسلم من آفاتها التي يستغلها الشيطان بمكره.

وقد سبق الحديث عن الأساليب العملية في تزكية النفس والتي هي بحقٍّ وقايةٌ وعلاجٌ من مداخل الشيطان، وأبرزها العلم النافع والعمل الصالح بمجالاته المختلفة.

ومن فضل الله سبحانه ورحمته بعباده أنه لم يتركهم يواجهون الشيطان وجنوده وحدهم، وإنما زوَّدهم بأسلحة تدحر الشياطين وتصرف أذاها عنهم، ومن هذه الأسلحة:

١ ـ الاستعاذة:

فهي سلاح نافع يطرد نزغات الشيطان ويُذهب وساوسه، وقد ورد في ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: **﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾** (سورة الأعراف/ آية ٢٠٠).

وقوله سبحانه: **﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾** (سورة المؤمنون/ الآيتان ٩٧-٩٨) .

والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله سبحانه لدفع شرور الشيطان، وفي ذلك

اعترافٌ من الإنسان بافتقاره إلى خالقه سبحانه وانكساره وتذلُّله بين يديه، ورجاءٌ من العبد الضعيف للمولى القادر أن يدفع عنه وساوس الشيطان، فهو سبحانه السميع العليم الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم كل ما ينفذ إلى نفس العبد من تلك الوساوس مهما كانت خفية، وهو القادر سبحانه على حماية العبد منها إذا التجأ إليه بصدق.

وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة من وساوس الشيطان وشرور المخلوقات، وأنزل في بيان ذلك سورتين من سور القرآن الكريم تسميان المعوذتين، وهما سورة الفلق وسورة الناس.

كما أن هذه الاستعاذة تتأكد في الحالات التي يجند الشيطان لها جنوده لكي يصد الإنسان عن طاعة ربه ويوقعه في المعاصي، وقد نبه المولى سبحانه إلى ذلك فقال تعالى: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾** (سورة المائدة / آية ٩١) .

فإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين بمختلف الوسائل الشيطانية، والصد عن ذكر الله وطاعته واشغال القلب عن الخشوع في الصلاة، تعد من أبرز الأمور التي ينصُبُ الشيطان من أجلها شباكه، ولذلك ينبغي للعبد أن يكون التجاؤه للخالق سبحانه في هذه الحالات أكثر ليتغلب على مكائد الشيطان، وهذا ما أرشدت إليه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية في الحث على الاستعاذة من الشيطان الرجيم عند حالات الغضب والانفعال، وعند

تلاوة القرآن الكريم والصلاة ونحو ذلك من العبادات.

٢ ـ ذِكْرُ الله تعالى:

الشيطان لا يتسلط على العبد إلا عند غفلته عن ربه، ولذلك كان الذكر سلاحاً يطرد وساوس الشيطان ويبصِّر العبد بمكائده حتى يحذر منها، والذكر يؤدي إلى التذكر وطرد الغفلة وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ (الأعراف/ آية ٢٠١).

فالغافل إذا تنبه من غفلته وتذكر عقاب الله ووعيده وجزيل ثوابه لابد أن يكون حذراً من أي طائف شيطاني يطوف بوساوسه حول القلب لينفذ إليه، وبذلك يفوت على الشيطان فرصته التي يريد أن يستغلها.

وقد بين الله سبحانه ما يفعله الشياطين بأتباعهم الذين تسلطوا عليهم وجعلوهم من حزبهم، فقال تعالى: ﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾ (المجادلة/ آية ١٩).

فالعلاج الحاسم الذي ينجو به العبد من استحواذ الشيطان وسيطرته عليه أن يذكر الله عز وجل بقلب خاشع، فتُحلُّ بالذكر أول عقدة من عقده التي يثقل بها الرأس عن طاعة الله تعالى.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على**

كل عقدة: عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلّت عقدُهُ، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) [(١)] .

فالشيطان يؤثر في النفوس بوساوسه لكي تستطيب المنام وتتثاقل عن القيام، والعلاج الذي يدحره هو المسارعة إلى ذكر الله تعالى والمبادرة إلى الوضوء والصلاة، وعندها يسعد العبد بما وفقه الله إليه من الانتصار على شيطانه، ويكون ذلك دافعاً له للإنتصار عليه في الجولات الأخرى طيلة نهاره، فيصبح نشيطاً طيب النفس، وإن لم يبادر إلى ذكر الله سبحانه تغلب عليه الشيطان وثبطه عن القيام وأعلن الغلبة عليه، وعند ذلك لن يكتفي بهذه الغلبة وإنما سيكرُّ عليه مرات أخرى حتى يقضي العبد نهاره مغلوباً مدحوراً متكاسلاً عن الطاعة، إن لم يبادر إلى الاستغفار والذكر الذي يدحر شرور الشيطان. وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

(بالذكر يصرعُ العبدُ الشيطانَ كما يصرع الشيطانُ أهلَ الغفلةِ والنسيان) [(٢)] .

وأفضل الذكر تلاوة القرآن الكريم، فهو الذكر الحكيم والنور المبين،

---

(١) صحيح البخاري - ٢/٤٦، ومسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب الحث على صلاة الوقت - رقم /٧٧٦.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٢٤.

وفيه الشفاء من أمراض النفوس والنجاة من وساوس الشياطين، وبخاصة آية الكرسي وأواخر سورة البقرة فقد وردت عدة أحاديث نبوية في فضلهما وأنهما حرز من الشيطان، كما أن تلاوة سورة البقرة حصن من الشيطان.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) [1] .

يضاف إلى ذلك الإكثار من النوافل لأنها تُوجِب محبة الله لعبْدِه وتُرقّي نفس المؤمن حتى يتغلب على وساوس الشيطان ويدحره وينجو من شروره، وقد تكفل الله تعالى بحفظ عباده الصالحين من تسلط الشياطين، فقال تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾** (سورة الحجر/ من الآية ٤٢) .

نسأل الله أن يجعلنا منهم.

---

(١) صحيح مسلم -كتاب صلاة المسافرين- باب استحباب صلاة النافلة في بيته- رقم-٧٨٠.

المبحث الثاني

تأثير الأسرة والمجتمع

إذا كانت مكائد شياطين الجن ووساوسها من أبرز المعوقات في طريق التزكية، فإن هناك معوقات أخرى لا تقل خطورة عنها، وهي مفاسد شياطين الانس وتأثيرها في تشويه الفطرة، ويتمثل ذلك في الأثر السيء للأسرة وبخاصة الأبوين، وللمجتمع بما فيه من اتجاهات وعقائد وأفكار ومؤثرات.

ومما يزيد خطر البيئة الفاسدة أن الإنسان احتماعي بطبعه يحب مجالسة الناس ويكره العزلة، ويتأثر تلقائياً بما يحيط به من أفكار وأخلاق وأعمال، ويسارع إلى محاكاتها إذا نالت منه الاستحسان، وهذا الاستحسان كثيراً ما يكون بسبب الموافقة لهوى النفس أو بسبب ما أَلِفه من عقائد وأعمال تربّى عليها منذ الصغر[(١)].

وقد حفلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ببيان هذا الأمر، وتصوير دعاوى المشركين في احتجاجهم بما وجدوا عليه آباءهم من اعتقادات باطلة.

قال تعالى: ﴿**بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون، وكذلك ما أرسلنا مِن قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترفوها: إنا**

(١) ينظر كتاب: غزو في الصميم ـ للشيخ عبد الرحمن حبنكة ـ ص /١٥٤-١٥٦.

وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون قال: أَوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا: إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾ (الزخرف/ الآيات ٢٢-٢٤).

وقال سبحانه: **﴿وإذا قيل لهم: اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا أَوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾** (سورة لقمان/ آية ٢١).

فليس لهؤلاء المعرضين حجة إلا إتباع ما وجدوا عليه آباءهم من قبلهم، وما نشأووا عليه من عقائد وتصورات فاسدة طمست نور الفطرة وحجزت القلوب عن الهداية.

والفطرة النقية تنحرف بتأثير الأسرة والمجتمع وبخاصة الأبوين، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحسون فيها من جدعاء ؟)**[1].

وفي هذا الحديث بيان لما يعتري الفطرة من تشويه بسبب البيئة الفاسدة

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز ـ باب إذا أسلم الصبي فمات ــ٢/٩٧، ورواه مسلم في كتاب القدر ـ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ـ رقم /٢٦٥٨.

حتى تنحرف عن الحق وبخاصة إذا كان الفساد ناشئاً من الأبوين.

وعندما يكبر الطفل لا يقتصر تأثيره ومحاكاته على ما يراه في أسرته، وإنما يصبح المجتمع المحيط به عاملاً من عوامل التأثير، وبخاصة أصحابه وزملاؤه، فإن كانوا فاسدين استقى منهم الفساد وانجرف معهم في مهاوي الردى.

فالصحبة السيِّئة لها أثرٌ كبيرٌ في الإفساد ، ولذلك حذَّرَ الرسول ﷺ من صحبة الأشرار وشبههم بنافخ الكير لشدة أذاهُم وعظيم ضررهم لمن يقترب منهم.

وهكذا يلتقي تأثير شياطين الإنس من أهل الشر والفساد في المجتمع مع تاثيرشياطين الجن، ليكون كل منهم عائقاً من عوائق تزكية النفس، وعدواً من الأعداءِ المتربصين بالعبد المسلم لإبعاده عن طريق الإيمان.

وكثيراً ما تملي شياطين الجن والإنس بعضها لبعض بوساوسها وحيلها الماكرة حتى تزداد إفساداً للناس وصداً لهم عن الطاعة.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾** (الأنعام/ من الآية ١١٢).

أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف الذي يغتر به سامعه وينخدع حتى يقع في شباكه[1].

ولذلك أمرنا ربنا سبحانه أن نستعيذ من شر شياطين الجن والإنس معاً لأن كلاً منهما يوسوس في صدور الناس ليضلهم عن دينهم، قال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إلهِ الناس، من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

وهذه السورة الكريمة تؤكد خطر شياطين الإنس وأنهم يوسوسون بأساليب خفية، ويتظاهرون بالنصح ويزينون القول ليخدعوا العباد ويصدوهم عن طريق التزكية.

وقد حذر المولى سبحانه من خطر شياطين الإنس، فقال تعالى: ﴿ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ (سورة النساء/ من الآية ٨٩) .

أي أنهم يودون لكم أن تضلوا لتصبحوا مثلهم وتتساووا معهم في اتباع الباطل، ولذلك لا يتركون طريقاً أو حيلة تحقق مآربهم في الإفساد إلا سلكوها.

وقد يصل الطغيان والشر بشياطين الإنس إلى درجة تتعدى شرور شياطين الجن لما يقومون به من مكائد وخطط ماكرة لإفساد الناس يعجز عنها

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١٦٧/٢.

عتاة شياطين الجن.

ويعبر الشاعر عن هذا المعنى بقوله:

وكنت امرءاً من جند إبليس فانتهى بيَ الفسق حتى صار إبليس من جندي

فلو مات قبلي كنتُ أُحسن بعده طرائق فسق ليس يحسنها بعدي[1]

والمتأمل لأحوال المجتمعات اليوم يجد من هؤلاء المضلين مالا يُعد ولا يُحصى، ولكلٍ منهم أسلوبه في الإفساد ونشر الشر، حتى أصبحت لهم المكانة والصدارة في المجتمعات التي تخلّت عن الإسلام، وجنّدوا لهذا الفساد كل ما لديهم من طاقات وأساليب، وبخاصة وسائل الإعلام التي اخترقت في انتشارها كل الحواجز وتسربت إلى كثير من البيوت.

وكم من مشهد ماجن أو صورة خليعة وقعت عليها العين فأثرت في النفس تأثيراً سيئاً وحرّكت كوامن الشهوة المنحرفة، وانتزعت من القلب آثار عشرات المواعظ والتوجيهات!!.

ويزداد الأمر سوءاً عندما يعيش الشاب في أسرة أَلِفت هذا الانحراف وهيأتْ له الأسباب، وتأتي أوقات الفراغ والغنى لتزيد النار اشتعالاً.

إن الشباب والفراغ والجِدَة مفسدة للمرء أيُّ مفسدة

ومن عادة الناس حب التقليد والمحاكاة والتأثر بالواقع إلا من رحم الله

(١) الاعتصام للإمام الشاطبي - ٢/٤٥

سبحانه، وهذا يقوي الدافع على الاستجابة لمفاسد شياطين الإنس وشرورهم.

وقد تحدث الإمام ابن تيميه رحمه الله عن ذلك فقال:

(كم ممن لم يُرد خيراً ولا شراً حتى رأى غيره - لاسيما إن كان نظيره - يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض)[1].

العلاج:

لابد بعد بيان أخطار شياطين الإنس من وصف العلاج الذي ينجي من شرورهم ويقي المسلم من مفاسدهم، ويتمثل ذلك في أمور كثيرة، من أبرزها:

١ - تقوية الإيمان:

فالإيمان إذا ترسخ في القلب وتذوق العبد حلاوته لا يمكن أن تغيّره الظروف والأحوال، أو يتحول صاحبه عنه مهما اشتدت المغريات والفتن، لأنه يحجز العبد عن الانحراف، ويجعل بينه وبين البيئة الفاسدة جداراً صلباً واقياً.

وقد أشار هرقل إلى هذا المعنى لما سأل أبا سفيان مستفسراً عن دين الإسلام فكان من بين أسئلته: **هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟**

فقال أبو سفيان: لا.

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/١٤٩-١٥٠

فأجاب هرقل: **وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب** (١).

فلا يعقل أن يتحول المؤمن عما وجد فيه الحلاوة إلى ما فيه المرارة والشقاء مهما كان المغريات، وإنما تراه يؤثّر فيمن حوله بالخير ولا يتأثر بالشر، وينتشل الغرقى بما آتاه الله من قوة بدل أن يغرق معهم.

وشواهد التاريخ الإسلامي حافلة بهذه النماذج المشرقة التي أضاءت للعالم طريق الحق، وكم من بلاد لم تدخلها جيوش الفاتحين انتشر فيها الإسلام على أيدي هؤلاء الدعاة الصالحين، الذين سافروا إلى بلاد الكفر للتجارة وكان الواحد منهم يحيا في بيئة مليئة بالفساد وإذا به كالطود الراسخ، لا يكتفي بأن يحصن نفسه من شرور البيئة وإنما يبادر بالدعوة إلى الإسلام بأقواله وأفعاله حتى يتأثر به الآخرون ويسارعوا إلى الإسلام.

والمجتمعات الغربية اليوم مليئة بالفساد مُغرقة في الانحراف والضلال، ومع ذلك تجد فئة من الشباب المسلم ممن تقتضي ظروفهم أن يعيشوا هناك يقومون بواجب الدعوة إلى الإسلام خير قيام، ويضربون أروع الأمثلة للعفاف والثبات والاستقامة على الطاعة رغم شدة الفساد المحيط بهم.

وبمقابل هؤلاء ترى أعداداً ممن ينتسبون للإسلام قد انساقوا وراء الفساد بمجرد سفرهم إلى الغرب، لأن الذي كان يحجزهم عن ذلك في بلادهم هو

---

(١) روى هذه القصة الإمام البخاري في بداية صحيحه -باب كيف كان بدء الوحي- ٥/١.

الخوف والخجل من الناس، وأما الإيمان فقد خَبَتْ جذوته في قلوبهم وضعُف تأثيره على حياتهم.

فلابد للعبد من تحصين نفسه بتقوية الإيمان، وذلك بالتزام المنهج الإسلامي لتزكية النفس الذي يحلّيها بالفضائل ويطهرها من الرذائل، والذي أفضنا في الحديث عنه في ثنايا هذا البحث.

٢ ـ بناء الأسرة على أساس التقوى:

إذا حرص الرجل على اختيار الزوجة الصالحة لتكون شريكة حياته، وحرصت المرأة على الزوج الصالح، وكانت حياتهما قائمة على أساس التقوى، فإن هذه الإسرة هي البيئة الأولى التي يحيا فيها النشء الصالح، ويتلقى من خلالها عقيدته وسلوكه قبل أن يخوض غمار المجتمع ويختلط بالناس، وفي تلك الأسرة يتلقى الأبناء التحصينات الأساسية التي تمنع عنهم كثيراً من أمراض المجتمع المُعدية ومفاسده المخزية.

وكم من أناس تساهلوا في اختيار الشريك الصالح لبناء الأسرة، فتسلل الفساد حتى نشأ الأبناء عليه، وبخاصة إذا كان ذلك الفساد من الأم، فإنها أكثر صلة بأبنائها من أبيهم، وأكثر عاطفة في التعامل معهم.

ويزداد الأمر سوءاً عندما تكون الزوجة غير مسلمة فيوكل إليها الزوج المسلم مهمة تربية الأبناء، أو يكون المشرف على هذه التربية إحدى الخادمات الكافرات !!

فلابد إذن من الحرص على بناء الاسرة المسلمة التي تربي الأبناء على الفضيلة والعفاف وتعلمهم أمور دينهم وتغذي أرواحهم بالإيمان.

٣ ـ صحبة الصالحين وتجنب الأشرار:

سبق الحديث بالتفصيل عن أهمية الصحبة الصالحة في تزكية النفس، والتحذير من صحبة الأشرار، وهذه الصحبة هي البيئة الثانية التي يحيا فيها الإنسان بعد بيئة الأسرة، فالطفل عندما يكبر لابد له من الالتقاء بالآخرين ومجالستهم والحديث معهم والتأثر بهم، فإن أحسن الأبوان اختيار تلك الصحبة لأبنائهم فقد خفّفا عن كاهليهما عبئاً كبيراً، حيث يستكمل الأبناء شخصيتهم الإسلامية من تلك الصحبة، ويتعلمون منهم الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم، وإن كانت تلك الصحبة فاسدة تقوّض البناء الذي بناه الآباء في نفوس أبنائهم.

٤ ـ إصلاح المجتمع:

المجتمع الذي انتشرت فيه مظاهر الفساد والانحراف وظهرت فيه المعاصي والمنكرات لابد له من علاج تتضافر فيه جهود الدعاة والمصلحين والقادة والمربين، لكي تستقيم أحواله وينجو من شرور شياطين الإنس والجن المتربصين به، الذين لا يكتفون بإغراء الناس بالمعصية، وإنما يريدون منهم المجاهرة بها والإعلان عنها حتى تعمم المجتمع ويُقبل عليها غيرهم بلا تردد ولا خجل.

ولذلك بيَّن المولى سبحانه ضرورة إرشاد الناس وإصلاحهم وتحذيرهم

من الفساد، وأن ذلك يعد جهاداً لا يقل أهمية عن جهاد العدو الخارجي، فقال تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفِروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾، (سورة التوبة / آية١٢٢)

فإذا قام الدعاة بواجبهم على أكمل وجه لابد أن تتحسن أحوال المجتمع حتى يصبح بإذن الله بيئة صالحة.

٥ ـ الهجرة والعزلة:

إذا عم الفساد المجتمع وانتشرت فيه الفتن و لم يتمكن المسلم من إقامة شعائر الإسلام فيه وخشي على نفسه وأبنائه من الانسياق وراء الفساد، فليبادر إلى الهجرة من هذا المجتمع الآثم، ولينتقل إلى مجتمع آخر تتحقق فيه حرية الالتزام بالإسلام.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواًغفوراً**﴾ (سورة النساء / الآيات ٩٧-٩٩) .

يقول الإمام ابن كثير: (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين

ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع)[(١)].

ثم عذر الله سبحانه المستضعفين الذين لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا كيف يسلكون الطريق أو لم تسعفهم الظروف المادية أو الصحية.

ومما يدل على ضرورة الهجرة لوقاية المسلم من شر البيئة المنحرفة المغرقة في الفساد والظلم ما ورد في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم قتل الراهب فكمل به المائة ، لأنه يأَّسَه من رحمة الله ، فلما أرشده العالم للتوبة بيّن له ما يعين عليها ويرسخها في نفسه، فقال له: (انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء)[(٢)].

وهكذا تُعدُّالهجرة علاجاً للوقاية من شر البيئة الفاسدة عند اشتداد الفتن، فإذا مُنع المسلم منها لم يبق له من سبيل إلا أن يعتزل أهل الفساد ويتجنب مخالطتهم ليسلم من شرورهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا العلاج في حديثه الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن يكون خير

---

(١) تفسير ابن كثير – ٥٤٢/١.

(٢) رواه مسلم – رقم/ ٢٧٦٦.

مال المسلم غنم يتّبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفرٌّ بدينه من الفتن)[1] .

ولهذه العزلة ضوابط وشروط ينبغي الالتزام بها، وإلا أدت إلى انحرافات لا تُحمد عقباها[2] .

فما أحرى المسلم أن يلتزم بمنهج الإسلام القَويم ليُزَكّي نفسه ، ويترقّى في مدارج المؤمنين الصادقين – نسأل الله أن يجعلنا منهم – .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الإيمان ـ باب: من الدين الفرار من الفتن ١/ وشعف الجبال: أعلاها، ومواقع القطر: مواضع الكلأ الذي نزل عليه المطر فأنبت.

(٢) ينظر: الباب الخامس من كتاب (منهج الإسلام في تزكية النفس) للمؤلف .

ملحق

يتضمن نصوصاً مختارةً من بدائعِ أقوالِ السلفِ الصالحِ رَحِمَهُمُ الله تعالى، في تشخيصِ أمراضِ النفسِ، ووَصْفِ العلاج الناجِعِ للخلاصِ منها.

ويتضمن كذلك شكلاً توضيحياً يُبيِّنُ الحدَّ الفاصلَ بين القلبِ المريضِ والقلبِ السليم. كما سبقت الإشارة إليه في الفصل الأولِ من هذا الكتاب.

تشخيصٌ دقيقٌ لأمراض النفس

يقول الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ الله تعالى:

(تأمَّلتُ في الخلقِ وإذا هُم في حالةٍ عجيبة ، يكاد يُقطع معها بفساد العقل .

وذلك أَنَّ الإنسانَ يسمع المواعظ وتُذْكَرُ له الآخرة فيعلم صِدقَ القائل ، فيبكي وينزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثُمَّ يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه .

فإذا قيل له: أَتَشُكُّ فيما وُعِدتَ به ، قال لا والله ، فيقال له: فاعمل ، فينوي ذلك ثُمَّ يتوقفُ عن العمل .

وربما مال إلى لذَّةٍ محرمة ، وهو يعلم النهيَ عنها .

ومن هذا الجنس تأخر الثلاثة الَّذِينَ خُلِّفوا ولم يكن لهم عذرٌ وهم يعلمون قُبح التَّأَخُّر ، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّط .

فتأمَّلتُ السبب مع أَنَّ الاعتقاد صحيح والفعل بطيء ، فإذا له ثلاثة أسباب:

أحدها: رؤية الهوى العاجل ، فَإِنَّ رؤيته تشغل عن الفكر فيما يَجْنِيه .

والثاني: التسويف بالتوبة ، فلو حضر العقل لحذر من آفاتِ التأخير ، فربما هجم الموت ولم تحصل التوبة .

والعجب ممن يُجَوِّزُ سلبَ روحِه قبل مُضِيِّ ساعةٍ ولا يعمل على الحزم ، غير أَنَّ الهوى يطيل الأمد ، وقد قال صاحب الشرع ﷺ : "صَلِّ صلاةَ مودِّع" وهذا نهاية الدواء لهذا الداء ، فإنه مَن ظنَّ أنه لا يبقى إلى صلاةٍ أخرى جَدَّ واجتهد .

والثالث: رجاء الرحمة فيَرَى العاصي يقول: ربيْ رحيم ، وينسى أنه شديد العقاب . . فنسألُ الله -عزَّ وجَلّ- أن يهب لنا حَزماً يُبُتُّ المصالح جزماً) .

[صيد الخاطر - ص/٣١٣-٣١٤]

وصفة نافعة للعلاج من أمراض النفس

يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ا للهُ:

(أوَّلُ ما يطرق القلبُ: **الخطرةَ** ، فإن دفَعَهـا اسـتراحَ مِمَّـا بعدهـا ، وإن لم يدفعها قَوِيَتْ فصارت **وسوسةً** ؛ فكان دفعُها أصعـب ، فـإن بـادرَ ودَفَعَهَا ، وإلاَّ قَوِيَت وصارت **شهوة** .فـإن عالجهـا ، وإلاَّ صـارت **إرادةً** ، فإن عالجها وإلا صارت **عزيمة** . ومتـى وصلـت إلى هـذه الحـال لم يُمْكِـنْ دفعهـا ، واقـترن بهـا الفعـل ولابـد . ومـا يقـدر عليـه مـرة بـدون مقدماته .وحينئذٍ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدويـة ، وهـو الاسـتفراغ التـام **بالتوبة النصوح** ، ولا ريب أَنَّ دفعَ مبادئ هذا الداء من أوله أيسر وأهون من استفراغه بعد حصوله –إن ساعدَ القدرُ وأعانَ التوفيـق– ، وإنَّ الدفـع أولى به .وإن تألَّمَتِ النفـسُ بمفارقـةِ المحبـوب: **فليـوازن** بـين فـوات هـذا المحبوب الأخَـسِّ المنقطـع النَّكِـدِ المشـوبِ بـالآلامِ والهمـومِ ، وبـين فـوات المحبوب الأعظم الدائم الذي لا نسبة لهذا المحبوب إليـه ألبتَّـة لا في قَـدْرِهِ ، ولا في بقائه . **وليـوازن** بين ألمِ فوتـه وبـين ألم فـوت المحبـوب الأخـس ، **وليوازن** بين لذة الإنابة والإقبال على ا لله تعالى ، والتَّنَعُّمِ بِحُبِّه ، وذِكْرِهِ ، وطاعتِه ، ولذَّةِ الإقبال على الرذائل ، والإتيان بالقبائح . **وليوازن** بين لـذة الظفَرِ بالذنب ولذة الظفر بالعدُوِّ ، وبين لـذة الذنـب ولـذة العِفَّـة ، ولـذة الذنب ولذة القوة وقهر العدو ، وبين لذة الذنب ولذة إرغام عَدُوِّهِ ، ورَدِّه

خاسئاً ذليلاً . وبين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده ، وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حُسن جزائه وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تَرْكِهِ لله تعالى عاجلاً ، وفرحة ما يُثِيبُه عليه في دنياه وآخرته . والله المستعان) .

[التبيان في أقسام القرآن لابن القيم - ص/٢٦٣-٢٦٤]

استقامة القلب وشفاؤه من أمراضه

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ا للهُ:

(استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة ا لله تعالى تتقدم عنده على جميع المحابٍّ ، فإذا تعارض حُبُّ ا للهِ تعالى وحُبُّ غيره ، سبق حبُّ ا لله تعالى حبَّ ما سواه ، فرُتِّبَ على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى ، وما أصعبه بالفعل ، "فعند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان" ...

وقد قضى ا لله تعالى قضاءً لا يُرَدُّ ولا يُدْفَع ، أَنَّ مَن أحَبَّ شيئاً سِواهُ عُذِّبَ به ولا بد ، وأنَّ مَن خاف غيره سُلِّطَ عليه ، وأنَّ مَن اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه ، ومَن آثرَ غيره عليه لَمْ يبارك فيه ، ومَن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد .

الأمر الثاني الَّذِي يستقيم به القلب: **تعظيم الأمر والنهي** ، وهو ناشئ عن تعظيم الآمِرِ الناهي ، فَإِنَّ ا لله تعالى ذمَّ مَن لا يعَظِّمُه ولا يعَظِّمْ أمره ونهيه ...

فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها ، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها ، والحرص على تحسينها وفِعلها في أوقاتها ، والمسارعة إليها عند وجوبها ، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حقٍّ

من حقوقها، كَمَنْ يحزن على فوتِ الجماعة، ويعلم أنه لو تُقُبِّلَت منه صلاته منفرداً، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضِعْفاً، ولو أَنَّ رجلاً يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفرٍ ولا مشقةٍ سبعة وعشرون ديناراً، لأكَل يديه ندماً وأسفاً، فكيف وكلُّ ضِعفٍ مما تضاعف به صلاة الجماعة خيرٌ من ألفٍ، وألفِ ألفٍ، وما شاء الله تعالى، فإذا فوَّتَ العبد عليه هذا الربح خسر قطعاً...

وأما علاماتُ تعظيمِ المناهي: فالحرص على التباعد من مظانِّها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرِّب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدَعَ ما لا بأسَ به حذراً مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشيةَ الوقوع في المكروهات، ومجانبة مَن يجاهر بارتكابها ويُحَسِّنها ويدعو إليها، ويتهاون بها، ولا يبالي ما ركب منها، فَإِنَّ مخالطة مثل هذا داعيةٌ إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلاَّ مَن سقط من قلبه تعظيمُ اللهِ تعالى وحرماته).

[الوابل الصيِّب - لابن القيِّم - ص/١٢ وما بعدها]

القلوب ثلاثة

(**القلب الأول:** قلبٌ خالٍ من الإيمانِ وجميعِ الخير ، فذلك قلبٌ مُظلِمٌ قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه ، لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد ، وتمكّن منه غايةَ التمكن .

القلب الثاني: قلبٌ قد استنار بنور الإيمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوِية ، فللشيطان هناك إقبالٌ و إدبارٌ ومجالاتٌ ومطامع ، فالحربُ دُوَلٌ وسِجال .

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقِلَّةِ والكثرة ، فمنهم مَن أوقاتُ غلبَتِهِ لعدُوِّهِ أكثر ، ومنهم مَن أوقات غَلَبة عدوِّه له أكثر ، ومنهم من هو تارةً وتارة .

القلب الثالث: قلبٌ محشوٌّ بالإيمان قدر استنار بنور الإيمان ، وانقشعت عنه حُجُبُ الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلِنوره في قلبه إشراق ، ولذلك الإشراق إيقادٌ لَوْ دَنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التي حُرِسَتْ بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رُجِمَ فاحترق ، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسةُ الله تعالى له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبَّدُ الملائكة ، ومستقرٌّ الوحي ، وفيها أنوارُ الطاعات ، وقلبُ المؤمن مستقرٌّ التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان ،

وفيه أنوارها ، فهو حقيقٌ أن يُحْرَسَ ويُحْفَظَ من كيدِ العدو ، فلا ينال منه شيئاً إلاَّ خَطْفَةً .

[الوابل الصيِّب - لابن القيم - ص/٤٢-٤٣]

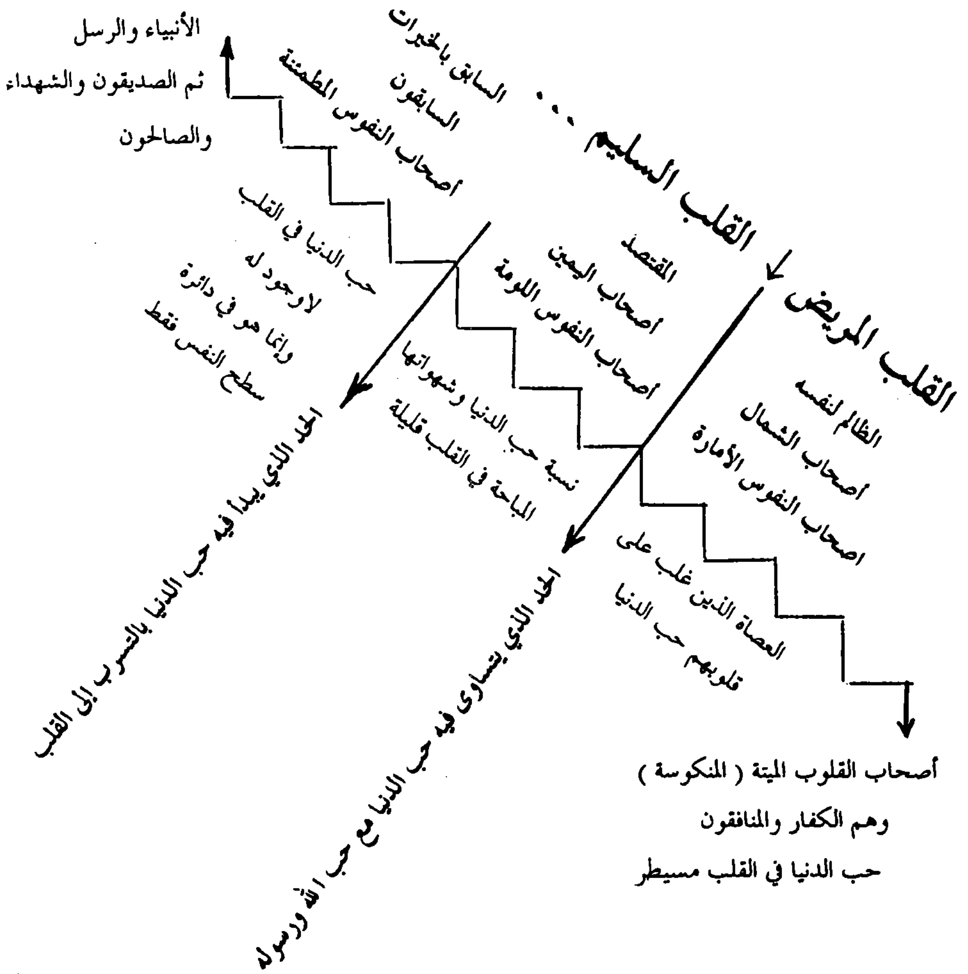
شكل توضيحي

يبيِّن الحد الفاصل بين القلب المريض والقلب السليم

والأقسام الثلاثة لأحوال النفس

وترقِّيها في درجاتٍ نحو زيادة الإيمان

أو دركاتٍ تتردى في مهاوى الضلال



الفهرس

الموضوع	الصفحة